873.08

843.08; M95g A
محمد - احمد الحلوي

843.08
M95g A

Jan 1458
'58
20 DEC 08
24 Feb 70
CAFET LIB
MAR 1983
MAY 5 '60
MAY 5 '61

843.08
M958A
C.1

احمد الصاوى محمد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

غانيات

59439

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

للمؤلف

غانيات ... ... مطبعة المعارف ومكتبتها

مأساة فرنسا ... ... } وثائق الحرب العالمية الثانية — شركة فن الطباعة

أسرار انهيار أوربا ... ... } وثائق الحرب العالمية الثانية — شركة فن الطباعة

الرقص على البارود ... ... } وثائق الحرب العالمية الثانية — شركة فن الطباعة

الوحش الأصفر ... ... } وثائق الحرب العالمية الثانية — شركة فن الطباعة

حياة قلب ... ... } الكتب العاطفية الجديدة — ملتزم النشر مطبعة المعارف ومكتبتها

المرأة لعبتها الرجل ... ... } الكتب العاطفية الجديدة — ملتزم النشر مطبعة المعارف ومكتبتها

الموجة العذراء ... ... } الكتب العاطفية الجديدة — ملتزم النشر مطبعة المعارف ومكتبتها

***

باريس ... ... } مطبعة دار الكتب المصرية

ما قل ودل (فى جزئين) ... ... } مطبعة دار الكتب المصرية

تايس ... ... } (نفدت)

الزنبقة الحمراء ... ... } (نفدت)

أفروديت ... ... } (نفدت)

فى الحياة والحب ... ... (نفدت)

طرطوف } بتكليف من وزارة المعارف العمومية .

عدو المجتمع }

عبيد الذهب : أخرجتها الفرقة القومية

رجال ونساء (فى أربعة أجزاء) ... ... م. دار النشر الحديث

مجلتى ... ... فى اثنى عشر مجلداً

كليوباتره ... ... فى مجلد واحد

الصحافة المصرية منذ نشأتها إلى اليوم (باريس ١٩٢٨) } باللغة الفرنسية

الاصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ (» ١٩٢٩) } باللغة الفرنسية

الإهداء

غانيتاه من الاسكندرية القديمة

وغانيتاه من باريس

يجتمعن على بُعد الشُقّة ، وطول الزمانه

أمام هيكل الحب

يقدمن عنى البرها . . الى الموعودة :

توبةً وهداية

من

الغلاف والزخارف الفنية

بريشة الفنان المجرى الشهير

أريك دى مانيش

كانت تدعى .. كريزيس

(١)

كريزيس

كانت مكبة على صدرها ، متكئة على مرفقيها ، وقد باعدت بين قدميها ، وهى تثقب بدبوس طويل من الذهب ، وسادة من التيل الأخضر ، ثقوباً منظمة . . .

وكانت قد استيقظت قبيل العصر ، متعبة من طول نومها ، فظلت مستلقية على السرير ، تغطى جنبها غلالة من شعرها الذهبى الداكن الغزير . .

وكان شعرها متألقاً ، كثًّا ، ناعماً ، كأنه جناح لين ممتلئ حرارة وحياة ، وقد تدلى على ظهرها ، وامتد حتى ركبتيها ملتوياً ، متألقاً ، غزيراً . .

وكانت غانيات الإسكندرية قد أطلقن على تلك المرأة اسم « كريزيس » ، لجمال ذلك الشعر الذهبى ، الذى لم يكن كشعر السوريات الناعم ، ولا كشعر الآسيويات المصبوغ ، ولا كشعر

المصريات الفاحم . . وإنما كان خاصًا بينات « الجليل » من السلالة الآرية .

وقد ولدت على شاطئ بحيرة « الناصرة » ، فى بلد ضاحٍ ، ملوءه الورد والغار . وكانت أمها تتمشى ، فى المساء ، فى طريق أورشليم ، تتعرف بالسياح والتجار ، وتتنزه معهم فى الحقول الساكنة . . وكانت امرأة محبوبة فى « الجليل » ، ولم يكن الكهنة يترفعون عن بيتها ، لأنها كانت ، على ذلك ، كريمة تقية ، تقدم الذبائح والقرابين . . . وحدث أن حملت ، وشاع الخبر ، فقال رجل أوتى التنبؤ : « إنها ستضع بنتاً تحمل يوماً ما حول جيدها : (غنى شعب وإيمانه !) » . . فلم تدرك الأم كيف يتم مثل هذا الأمر العجاب . وسمّت بنتها « سارة » - أى « أميرة » باللغة العبرية - وقطع هذا الاسم ألسن القادحين .

وكانت « كريزيس » تجهل ما تنبأ به لها ذلك الراجم بالغيب ، وكثيراً ما كانت تفكر فى مستقبلها ، وقليلاً ما كانت تتذكر طفولتها ولا تحب الكلام عنها أو الخوض فيها . . وكان كل ما بقى لها من تلك الأيام الماضية أثر رعب وضيق سببهما رقابة أمها الشديدة لها وخوفها عليها ، حتى إنها كانت عند خروجها إلى طريق أورشليم تحبسها فى الغرفة ساعات طويلة . . وتذكر

الكوّة المستديرة التى كانت تطل منها على ماء البحيرة، والحقول الزمردية، والسماء الصافية، والهواء البليل، هواء « الجليل »، وقد تناثرت حول البيت أشجار الأثل والقنب الوردى، والبنات يغتسلن فى الغدير الصافى حيث يجدن الأصداف الحمراء تحت زهر الغار . . وكانت الزهور على الماء والأرض فى كل مكان، وكانت الزنابق الكبيرة ترصع الروابى والجبال .

وكانت فى الثانية عشرة من عمرها عندما هربت لتتبع جماعة من الفرسان الشبان يقصدون مدينة « صور » ليبيعوا العاج . . وقد أدركتهم حين أشرفوا على بئر . . وتذكر جلياً كيف خطفوها على خيولهم، وهى مبهوتة من شدة الفرح، فى ليلة صحو، مشرقة السماء .

وإن تنس لا تنس دخولها مدينة « صور » على رأس الرَّكب، على حصان يحمل سلتين، وهى ممسكة بمعرفته، تهز بكبرياء ساقيها الجميلتين العاريتين، لترى نساء المدينة ما يجرى فيهما من دم نقى طاهر ! . . .

وفى ذات ليلة، رحلوا إلى مصر، فتبعتهم حتى سوق الإسكندرية . . وهناك، فى بيت صغير أبيض، له شرفة وعُمُد عالية، تركوها، بعد شهرين، مع مرآتها المعدنية،

وطنافس ، ونمارق ، وفراش وثير ، وجارية هندية جميلة بارعة فى تزيين الغوانى وتمشيط شعورهن .

ولما كان بيتها فى أقصى المدينة ، لم تعرف — لزمن مديد — غير السياح والتجار كأمها ، لأن شبان المدينة الأغنياء كانوا يترفعون عن الذهاب إلى ذلك المكان القصى . . ومع ذلك ذاع صيتها ، فقد حركت من المشاعر ما كان ساكناً ، وأذكت من العواطف ما كان كامناً ، وشوهد أرباب القوافل يتعجلون بيع بضاعتهم بثمن بخس ، ليتمكنوا من قضاء ليالٍ معها ، يفلسون بعدها . . . واشترت بالأموال التى اكتسبتها حليًا ، ووسائد غالية ، وعطوراً نادرة ، وثياباً موشاة بخيوط الذهب ، وأربع جوار . .

وحذقت عدة لغات ، وحفظت قصصاً عن كل البلاد ، فأخذت عن الأشوريين قصة حب « دوزى وعشتار » ، وعن الفينيقيين حكاية « عشترون وأدونيس » ، وعن بنات جزائر الإغريق سيرة « إيفيس » . . وعرفت غراميات « أتلنتا » ، وأسرار حوريات الناى العذارى . . وأخيراً ، لقنتها جاريتها الهندية بصبر ، فى خلال سبع سنين ، تفاصيل فن الحب المعقد الذى ابتدعته غوانى « بلبوثره » من أعمال الهند . . ذلك أن الحب

فن كالموسيقى ، له أنغامه وأوزانه ، ينشئ تأثرات مثلها رقةً ودقةً وطرباً ، وقد تفوقها أحياناً فى درجة وقعها وقوة تأثيرها . .

وعاشت « كريزيس » تلك السنين السبع لا تتصور حياة أرغد من حياتها ، أو أشد تنوعاً وتجدداً . ولما ناهزت العشرين من عمرها ، وتحولت من فتاة إلى امرأة ، ثارت بها على غرة نزعات أخرى ، وأدركت أنها لم تعرف من الحياة غير «ألف باء» الغرام .

. . . . . .

وفى ذلك الصباح ، كانت مكبة على صدرها متكئة على مرفقيها ، وقد باعدت بين قدميها ، وهى تثقب بدبوس ذهبى ، وسادة خضراء ، ثقوباً منظمة . .

وكانت غارقة فى لجة من الفكر .

وإذا بها تصيح فجأة : « جالا ! جالا ! . . » .

وكانت « جالا » هذه جاريتها الهندية ، وتدعى : « جالنتشدرا تشابالا » ، ومعناها : « متحركة — تتغير كخيال القمر — على الغدير » . وكانت « كريزيس » تستثقل مناداتها باسمها كله . . فدخلت الجارية ووقفت بالباب .

— جالا ! . . من جاء البارحة ؟

— أفلا تعرفين ؟

— كلا . . فلم أنظر إليه ! . . أكان جميلاً ؟ ! فقد نمت طول ليلى لأننى كنت منهوكة القوى . . ولا أذكر شيئاً . . ففى أية ساعة انصرف ؟ أمبكراً فى الصباح ؟

— عند طلوع الشمس ، وقال . . .

— وماذا ترك ؟ . . ولكن لا ! . لا تقولى شيئاً . . سيان عندى ! . . ماذا قال ؟ أولم يأت أحد بعد انصرافه ؟ . . وهل يعود ؟ هاتى أساورى ! . .

فجاءتها الجارية بصندوق صغير ، فلم تنظر « كريزيس » إليه ، بل رفعت ذراعيها ، وصاحت :

— آه يا جالا ! يا جالا ! . إنى أتوق إلى مغامرات جديدة ! .

فقالت جالا :

— إن كل شىء لا يكون شيئاً إلا إذا كان غريباً طريفاً . . إن الأيام تتعاقب متشابهة .

— كلا ! . . كان الزمن الغابر غير هذا ! كانت الآلهة فى كل بلاد العالم تنزل إلى الأرض وتحب النساء ، والغانيات منهن خاصة . . ففى أى خدر ينبغى انتظارهم ؟ وفى أى غاب ينبغى البحث عنهم ؟ . أولئك الذين يفوقون الرجال ؟ ! أية صلاة

تقدم إليهم ليقبلوا فيعلمونى شيئاً ، أو ينسونى كل شىء ؟! وإذا كان آلهة الإغريق قد كفوا عن الهبوط أرضاً ، أو شاخوا ، أوماتوا ، فليت شعرى ، يا جالا ، أأموت قبل أن أرى الرجل الذى يشبع حياتى ؟ !

ثم استلقت على ظهرها ، وشبكت أصابعها على صدرها :

— لو أن أحداً هام بى ، لخيّل إلىّ أن هنائى يطغى إذا عذبته حتى يموت ! . أما الذين يأتون إلىّ فلا يستأهلون دمعة العين ! . ومع ذلك فالذنب ذنبى ، لأننى أنا التى تدعوهم ، فكيف يحبوننى ؟ !

— أى سوار تضعين اليوم ؟

— سألبس أساورى كلها . . ولكن دعينى ، فإننى لا أريد أحداً ! . . واذهبى عند درج البيت وانهرى من يطرق بابى ! . إننى اليوم لنفسى ! . .

— أفلا تخرجين ؟

— بلى ، سأخرج وحدى . . وأرتدى ملابسى وحدى . . ولن أعود ! . . اذهبى ! اذهبى ! . .

وألقت بقدم على البساط ، وتمطت ، ثم قامت . . وانسلت « جالا » . .

وتمشت متثاقلة فى غرفتها ، وقد شبكت يديها وراء عنقها ، شاعرة بلذة وضع قدميها الحافيتين على الرخام ، ثم دخلت الحمام .

وكانت متعتها الكبرى أن ترى جسمها من خلال المياه التى تلعب بها حتى يغطس رأسها ، وتسمع خرير الماء فى أذنيها كأزيز القبلة المثيرة . . وكانت ساعة الاستحمام هى الساعة التى تبدأ فيها « كريزيس » بعبادة ذاتها ، وتمجيد حسنها . .

وعند ما انطفأت شعلة النهار ، خرجت من الحمام ، وهى تترنح إعياءً وتيهاً ، والماء يقطر منها ، وصاحت بالجارية ، عند سريرها :

— جففينى ! . .

فدنت منها الجارية ، وبيدها إسفنجة كبيرة ، مسحت بها مراراً شعر « كريزيس » العسجدى حتى جف ، ثم غمست الإسفنجة فى جرة ملأى بالزيت العطرى ، ومسحت بها فى رفق شعر سيدتها وجلدها ، ثم دلكت بشرتها ، بقماش خشن ، حتى عاد إليها لونها الوردى . .

— سرِّحينى . .

فرفعت الجارية شعر سيدتها بين يديها ، ولفته ، ثم جدلته مع أشرطة من الحرير الأخضر ، بينما كانت « كريزيس » ممسكة

بمرآة من النحاس المصقول ، ترقب أصابع جاريتها وهى تنساب وتتلوى بين غدائر شعرها الغنى الغزير ، تعقصه وتحبكه فى ضفيرة تجمعها فوق رأسها بشكل مخروطى ، وتشبكها بدبابيس شعر من الذهب الخالص . . . ولما تمت زينة رأسها ركعت الجارية أمامها ، وأزالت ما فى مخابئ البدن من شعر طفيلى ، حتى صارت كتمثال من المرمر . . .

— خططينى ! . .

ففتحت الجارية علبة تحوى ألوانا من الدهون والطيوب و «الخطوط» والكحل ، وأغمدت فرشاة من شعر الجمل فى الإثمد المائع ، ومست أهداب سيدتها ، وأخرجت «مروداً» من مكحلة خطت به خطين أسودين يمتدان إلى ما يلى لحاظ عينيها ، نحو الصدغ ، ثم طلت جفنيها وما حولهما من محجريها بمسحوق رصاصى أدكن ، وجعلت فى كل موق نقطة من سائل قرمزى ، ثم زججت حاجبيها بعناية ودقة ، ثم أخذت ريشة ناعمة وغمستها فى مائع من الإسبيداج الممزوج بالطيب والزيت الثمين ، وطلت به وجهها وعنقها وصدرها وجسمها إلى إخمصى قدميها ، ثم « دممت » شفتيها وحلمتيها « بدمام » من اللعل ، ودهنت وجنتيها بمسحوق أحمر ، وأتمت زينتها بمرخ ما بقى

من جسمها بالطيوب والعطور، ثم بتقليم و«تدريم» أظافرها .

— غنيني . .

فغنت الجارية، وردت عليها سيدتها غناءها، والتغزل فى جمالها، والتدله فى هواها، فشبهت وجهها بالبدر، وغدائرها بسعف النخل، وشعرها بنهر ممتد فى واد طويل عند مغرب الشمس، وعينيها بعينى ماء صافيتين عميقتين تكتنفهما وتظللهما أشجار باسقة كثيفة، وشفتيها بزهرتين نضرتين مصبوغتين بدم غزال، أو بشفرى جرح جديد دام، ولسانها بالخنجر المخضب بدم الجرح الذى كوّن شفتيها. كما شبهت ذراعيها وساقيها بأعمدة من العاج، وثديها بالرمان المرمرى، وقامتها بغصن البان . . .

. . . . . .

وجعل الليل يرخى سدوله، وسطع القمر حتى ملأ الغرفة نوراً أزرق . وكانت «كريزيس» مازالت متجردة تنظر إلى انعكاس أشعته على جسمها . . ثم اعتدلت فجأة، وصاحت :

— كيف يا جالا ! فيم نفكر ؟ . . إن الليل قد دهمنا ولم أخرج بعد . . . جالا ! جالا ! . . قولى لى، أأنا جميلة ؟ ! قولى لى إننى الليلة أجمل منى فى كل الليالى ! . . وإننى أجمل امرأة

فى الإسكندرية . . كما تعرفين ! . أفلا يتبعنى من ألحظه بطرفى الخفى ، بعد قليل ، كالكلب الذليل ؟ ! أفلا أستطيع أن أفعل به ما أشاء ، فأجعله أطوع لى من عبدى أو بنانى ، إذا بدا لى ؟ !

ثم وضعت فى ذراعيها سوارين من الفضـــة على شكل ثعبانين ، وفى قدميها شراك نعل من جلود مشتبكة ، وفى أذنيها قرطين مستديرين ، كحلقتين كبيرتين ، وخواتم فى أصابعها ، وقلادة فى عنقها ، ذات ثلاثة صفوف من الذهب المنقوش فى حى « باكوس »

ونظرت طويلاً إلى جسمها المتجرد ، وتناولت ثوباً شفافاً مهفهفاً من الكتان الذهبى ، وألقته على جسمها ، وتركت ذراعاً وكتفاً مكشوفتين ، ورفعت على ذراعها الأخرى ذيلها كيلا يلوثه الثرى ، وأخذت بيدها مروحتها ، وخرجت تتثنى عجباً ، وتتيه دلالاً . . .

ومشت على طول البيوت ، فى الشارع القفر ، المنير بضوء القمر ، يتقدمها ظلها الصغير ، وكأنه طفلها ، يحبو أمامها . . .

(٢)

على رصيف الإسكندرية

كانت رصفة الإسكندرية، عند الأصيل، ملتقى المتنزهين من: الفلاسفة، والعلماء، والشعراء، وبنات الهوى، والمغنيات، والراقصات، وباعة الفاكهة، والملاحين، والشحاذين، والسقائين يحملون القرب على كواهلهم أو على ظهور حميرهم.. وكان الفتيان والفتيات يروحون ويجيئون على الرصفة، أشبه بما نراه اليوم على «الكورنيش».. وكنت ترى معرضاً للغزل والأناقة والفاقة، من لابسى الصنادل الذهبية إلى حفاة الأقدام، ومن مرتديات أنخر الخز والديباج والكتان إلى عاريات الأبدان.

وكنت تسمع فى ذلك اليوم مغنية بين قينتين من النائحات بالناى، استرسلت تغنى غزلاً فى حوريات الغاب وهن يلعبن ويمرحن على العشب الندىّ الأخضر، و«عيروس» يريش سهام الحب الفتاك ويرسلها هنا وهناك، يغرى بهن الرجال..

وبعد أن ختمت أغنيتها مدت يدها إلى من أحدق بها من المتفرجين، وجمعت قروشاً وضعتها فى حذائها، وانفض عنها المستمعون، واختلطوا بجماهير المتنزهين، من المتسكعين العاطلين، أو رجال المال والأعمال، أو طلاب العشق والجمال..

ثم علا ضجيج القوم، وسرى بينهم همس ولغط.. وتردد هتاف باسم « ديمتريوس » . . .

فقد ظهر بينهم المثال العظيم الذى وهبته أميرة البلاد نفسها ليتخذها مثالاً للمبعودة « أفروديت »، وكانوا يقولون إنه صاحب الأميرة وعزيز مصر. وكان جميلاً كأبولّو.. وكانت له، مع ذلك، وقائع هوى وصلت إلى مسامع الأميرة، فقد شغف نساء البلاد كلهن حباً، فلم تشر إليها بكلمة، حباً له وخشية أن يعود إلى رودس، مسقط رأسه، ومهد فنّه...

وفى ذلك اليوم، كانت تجلل محياه سيما الحزن.. فماذا أصابه؟

غربت الشمس، والنساء يشرن إلى هذا الرجل، رجل أحلامهن، وهو لا يكترث بحركة، ولا إشارة.. يتكئ على سور الرصيف، ينظر إلى البحر، ويصغى إلى العازفات بالناى.

وجن الليل، وعادت النساء أدراجهن إلى الإسكندرية،

أسراباً، يتبعهن الرجال. وكلهن يلتفتن نحو «ديمتريوس»، وقد ألقت إليه إحداهن بلطف زهرة صفراء، وضحكت.. ثم ساد السكون على الرصيف...

(٣)

ديمتريوس

ظل « ديمتريوس » منفرداً ، متكئاً على السور فى المكان الذى غادرته فيه العازفات بالناى ، يستمع إلى هدير البحر ، وأشرعة السفن وهى تقرقع من عصف الهواء ، محاولاً أن يطرد أفكاره ، متشاغلاً بالنظر إلى الكائنات ، كأنه يحاول أن يغرق همومه فى لجة البحر . .

وكان يجتوى ضجيج الحياة ، فلا يغادر بيته إلا إذا استتب السكون ، ولا يعود إلا عندما يخرج صيادو السمك وباعة الخضر . . وكان قد استطاب تلك الوحدة التى لا يرى فيها إلا ظل الإسكندرية وظله . . لذلك لم يكن قد رأى الظهيرة لعدة أشهر !

وكان قد برم بنفسه ، وبالأميرة « برنيس » . . وكاد الآن ينكر ليلة ازدهاه الفخر والكبرياء والفرح ، منذ ثلاث سنوات ،

لمرآها لأول مرة ، إذ استقبلته ، منفردة ، فى جناح من قصرها المكتظ بالأثاث الوثير الذى يخنق كل صوت . .

وكانت مضطجعة على جنبها الأيسر ، غارقة فى الحرير ، وفى غدائر شعرها . . وعليها ثوب نمنمته يد غانية ذائعة الصيت ، يبدو منه جسمها فى عشرين موضعاً ، كأنها دعوات إلى ملامستها ومداعبتها . . .

وإنه لثوب يشف للعاشق فى صحوه ، عما قد يتخيله فى نومه ، دون حاجة إلى نضوه ! . .

فجثا ديمتريوس بكل خشوع ، وتناول قدمها الصغيرة ، وقبلها كدرة ثمينة . . فوقفت ، وقفة جارية تُتَّخَذ مِثالاً ، ونزعت ثيابها وحليها ، وتجردت حتى من أسورة ذراعيها وخواتم أصابع قدميها .

وكان والد الأميرة من البطالسة ، وكانت أمها أميرة من أصل سورى ، هو سلالة الإلهة « عشتروت » المعروفة عند الإغريق باسم « أفروديت » . وكان « ديمتريوس » يعرف ذلك ، ويعلم أنها تفخر بسلالتها الأوليمبية .

قالت ، وهى واقفة متجردة أمامه :

— أنا « عشتروت » ! . . نخذ المرمر والأزميل ، واعرض مثالى على قوم مصر ، فإنى أريد أن يعبدوه !

فنظر إليها « ديمتريوس » ، وأحس المتعة الهنيئة التى تحيي جسدها الغض . . وقال لها :

— إنى لك أول العابدين ! . .

وطوقها بذراعيه . . . فلم تغضب الأميرة لهذه المفاجأة ، ولكنها تراجعت عنه متسائلة :

— أتزعم أنك « أدونيس » حتى تلمس الآلهة ؟ !

فأجاب :

— أجل ! . .

فنظرت إليه مليًا ، وارتسم على شفتيها ظل ابتسامة ، وقالت :

— صدقت ! . .

. . . . . .

ونفر أصحابه منه غيرة وحسدًا ، ولكن النساء هممن به حباً . . فكان إذا مر فى القصر وقفت الجوارى وسيدات البلاط كأن على رؤوسهن الطير ، حتى الأجنبيات كنَّ يصغين إليه لأن صوته سحر . . فإذا ماخلا بالأميرة تزاحمت الوصيفات يبتكرن العلل والأسباب . . وكثيراً ما كانت تمتلىء ثنايا ثيابه وجيوبه بأوراق البردى المدونة فيها أسماء نساء ، وكلمات

ضراعة وابتهال ورجاء .. فكان يلقيها قبل قراءتها ملالة من هذا كله .

ولما نصب تمثال « أفروديت » فى هيكلها ، ازدحمت جماهير المتعبدات إلى الهزيع الأخير من الليل ، يقرأن اسمه المحفور فى الحجر . ويقدمن إليه الحمام والورد قرباناً !

وغص بيته بالهدايا ، فتقبلها بادئاً بلا مبالاة ، ثم صار يرفضها بعد ما عرف مآرب اللواتى قدمنها . وقد طمعت فيه حتى جواريه ، فضربهن بالسياط ، وباعهن فى سوق ، « راكوتيس » . ولما بهرت عبيده الهدايا ، فتحوا بابه للنساء ، فكان يجدهن فى أشكال فاضحة حول فراشه .. وكانت أدوات زينته تُسرق . وكان عند أكثر من امرأة فى المدينة حذاء منه ، أو حزام ، أو كأس شرب .. وربما وجد عند بعضهن بذور الفاكهة التى كان يلفظها ! ولو أن وردة وقعت منه والتفت لما وجدها وراءه ... بل إنهن ليكدن يجمعن أديم الأرض من تحت قدميه ! ...

وكان هذا الاضطهاد خطراً عليه ، يهدد دقة شعوره بالتبلد ، فضلاً عن أنه بلغ السن التى ينبغى فيها للعاقل المفكر أن يفصل بين شطرى حياته ، فلا يخلط بين حكم العقل وحاجة

الجسم . فاتخذ من تمثال « أفروديت » بداية للهداية . . وكان كل ما للأميرة من جمال ، وكل ما يمكن ابتداعه مثلاً أعلى لتقاطيع جسمها اللدن ، قد أخرجه « ديمتريوس » من الصخر الأصم . . ومن ذلك اليوم رأى أنه ما من امرأة على ظهر الأرض ببالغة تلك الصورة المثلى التى يتمثلها خياله . . فأصبح التمثال قبلته ومشتهاه . فلم يعبد سواه ، عبادة متطرفة ، فرقت بين الجسم والفكر ، وتنزهت عن المادة ، وسمت على اللحم والدم . . إلى حد أنه لما عاد فرأى الأميرة نفسها ، ألفاها مجردة من كل ما قد كوّن لديه سحرها ، وتعللت به رغباته زمناً ما . . وكانت إذا ما استسلمت إلى ذراعيه ، وهجعت ، وأصابتها من النوم سِنَة على صدره ، نظر إليها كأنها دخيلة اغتصبت حبه ، من حيث لا حب . . واتخذت شكل المحبوبة . . فيزداد منها نفوراً !

ويندر أن يتحول رجل عن حبه ، ولا تمر به فترة تجذبه فيها حياة الرذيلة . . فاستسلم « ديمتريوس » إليها . . ومع ذلك كانت تعتريه الندامة ، فيصعد درجات الهيكل ، ويرفع إلى تمثال « أفروديت » ، فى انجذاب ولوعة ، هذه الصلاة :

— « إيه أيتها الأخت الإلهية !.. أيتها المتجلية المزدهرة !.. إنك لم تعودى الآسيوية الصغيرة التى أخذت عنها المثال

الحقير !.. بل أنت فكرتها الخالدة !.. إنك روح «عشتروت».. كنت تسطعين فى عينيها البراقتين، وكنت تحترقين فى شفتيها القرمزيتين ! وكنت خائرة القوى فى يديها الرخصتين ! . . وكنت تلهثين فى ثدييها الناهدين ! . . أيتها الإلهة ! أنت هناءة العالم وشقاؤه ! . . ولكننى رأيتك ، واستدعيتك ، وتملكتك ! . . إننى كشفت للأرض عنك ! . . إنها ليست صورتك ، بل أنت نفسك التى أعطيتها المرآة ، وغطيتها باللآلىء ، كيوم ولادتها من أرجوان الشمس وابتسامة الماء !.. »

ولما انتهى من نجواه ، نزل إلى رصيف الإسكندرية ، فى الساعة التى تعود فيها الجماهير ، وسمع الغناء الشجى الحزين الذى كانت تنتحب فيه النائحات بالناى . . وفى هذه الليلة ، ترفع عن الدنس ، وعافت نفسه الرذيلة ، وثار عليها . . .

وسرى فيه — شيئاً فشيئاً — هدوء الليل ، فاستقبل الهواء ، الذى يمر بالبحر ، وكأنه يحمل رائحة ورد «أماتنت» إلى مصر ...

وكانت تمر بمخيلته صور نسوية جميلة ، وهو يفكر فى التماثيل التى ينوى صنعها ، منتزعاً نفسه من الحب ، مأخوذاً بالجمال ! ..

وحدث أنه اتجه نحو الرصيف .. فرأى حجاباً ذهبياً لامعاً يسطع على امرأة كانت ، عن بعد ، تتمشى . . .

(٤)

عابرة السبيـــل

تقدمت الهوينا . . وهى تميل برأسها على كتفها . . وكان الرصيف مقفراً ، وقد انبسط عليه ضياء القمر ، وكان ظلها الصغير يخفق أمام خطاها . .

فنظر إليها « ديمتريوس » وهى تتقدم ، فعرف من حليها أنها غانية . فأسرع باجتياز الطريق ، ليوفر على نفسه تحيةً منها . .

ولم يرد أن ينظر إليها ، فحصر فكره فى رسم تمثال جديد ، ومع ذلك التفت إلى عابرة السبيل .

وعندئذ رأى أنها لم تقف ، ولم تهتم به ، ولم تتظاهر بالنظر إلى البحر ، أو برفع حجابها ، أو بأنها غارقة فى تأملاتها ، بل كانت تتنزه ببساطة ، منفردة ، لا تبحث هناك إلا عن طراءة الهواء ، والاستسلام للوحدة والسكون . . فلم يرفع « ديمتريوس » عنها بصره ، وبقى بلا حراك ، وتاه فى بيداء الدهشة . .

واسترسلت فى المشى ، كظل ذهبى ، متباعدة ، متراخية ، متخطرة ، وأمامها الظل القاتم الصغير . .

وكان يسمع فى كل خطوة خفق نعلها على حصباء الطريق .

وظلت فى سيرها إلى أن وصلت جزيرة الفنار .

وهرول « ديمتريوس » فجأة خلفها ، كأنه كان يعرفها من زمن بعيد . . ثم وقف مرتجفاً ، وتراجع ساخطًا ، ولكنه لم يقو على التزحزح عن مكانه ، وأخذ يحدث نفسه :

— من تكون هذه المرأة التى ملكت علىّ مشاعرى ، ولم أر منها إلا قدّها المياس فى ثوب أصفر ؟ وما سر انجذابى إليها ؟ عساه أن يكون إلهام الفن يوحى إلىّ أنها نموذجى الذى أنشده لأبدأ بصنع التمثال غداً ؟ !

ولكن ، لماذا أتت إلى هذه الجزيرة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ ولماذا لم تعرنى التفاتة عندما رأتنى على الرصيف ؟

وبينما هو مسترسل فى تأملاته ، عادت تتخطر ، فى ضوء القمر ، وأقبلت نحوه صامتة ، ساكنة ، كأنه لم يكن فى طريقها .

(٥)

المرأة والمشط والعقد

ولما صارت على بعد عشر خطوات من «ديمتريوس» دارت بنظرها نحوه . . ولما رأى عينيها الساحرتين أحس برعدة تتمشى فى كل جوارحه ، وشعر كأن قواه قد تلاشت ، وعضلات بدنه تفككت . . وهى تتقدم فى سيرها ، وتمر من أمامه غاضة طرفها ، نخشى أن تفوته الفرصة ، فيندم عليها حين لا ينفع الندم . . فاستجمع ما بقى له من عزم ، وابتدرها بالسلام المألوف :

— إنى أقرئك السلام !

فأجابته قائلة : — وأنا أقرئك السلام !

فشعر « ديمتريوس » باسترداد قواه ، فسألها :

— إلى أين أراك ذاهبة ؟

— إلى بيتى .

— وحدك ؟ !

— نعم وحدى .

قالت ذلك ، وهمت بالاستمرار فى طريقها ، فاستوقفها « ديمتريوس » قائلاً :

— ومن أين ؟ ولماذا أتيت ، وعليك هذا الثوب النفيس وهذه الحلى الثمينة ؟

— أكنت تتوقع أن ترانى عارية وأنا أتنزه على « الكورنيش » ؟ أو أرتدى ثوباً من الصوف كالجوارى ؟ إنى ألبس ما يعجبنى ويحمل الناس على الإعجاب بى . . ويلذ لى أن أتمتع بمنظر أصابعى وفيها كل خواتمى .

— ولماذا لا تحملين مرآتك فى يدك لترى عينيك الساحرتين ، فتذهلى عن كل شىء آخر ؟ ؟ . ولست أخطىء إذا زعمت أن صاحبة هاتين العينين النجلاوين لم ترى نور العالم لأول مرة فى الإسكندرية . . ألست يهودية ؟ . .

— كلا ، لست يهودية ، بل جليلية . .

— وما اسمك ؟

— إننى لن أبوح لك باسمى السريانى ، لأنه ملكى ، لا أطلقه على نفسى فى هذه البلاد ، أمّا اسمى الذى يعرفنى به أصحابى هنا فهو « كريزيس »

— أذاهبة أنت الآن إلى زوجك المجدود ؟

فوضعت يديها فى خاصرتيها وقالت :

— ليس لى الليلة زوج . . .

— أراك قد بدأت متأخرة فى البحث !

— ومن قال لك إننى أنشد رجلاً ؟ . . لقد جئت لمجرد النزهة ، لمزاجى . .

فمد « ديمتريوس » يده ، وأمسك بذراعها العاجية ، فتراجعت قليلاً ، وقالت له فى تمنع وابتسام :

— كلا ! كلا ! . إنى تأخرت كثيراً ، فدعنى أعود إلى بيتى ، لأنى أشعر بالتعب والجوع . .

وانحنت على قدمها ، ورفعتها بيدها ، وقالت :

— انظر كيف تضغط شراك نعلى على بشرة قدمى لأنها مشدودة أكثر مما يحتمله جلدى ، وإن لم أرخها الآن فسيترك ضغطها أثراً جميلاً يغرى من يراه بتقبيله ! فاتركنى بحقك ، وانظر ! انظر ! ألست ترى أن ثوبى العسجدى قد تثنى عند خصرى ؟

فرفع « ديمتريوس » يده ومر بها على جبينه المثلج . . وبعد صمت ، قال :

— تقدمينى إلى بيتك . .

فأظهرت « كريزيس » دهشتها الغاضبة ، وأجابته قائلة :

— يقيناً لن أفعل ! . . . أتظننى أبيع جسدى فى الأسواق ، حتى تجرؤ على مخاطبتى بصيغة الأمر ؟ . . إنك لا تعلم عنى شيئاً ، أو إذا ما كنت على موعد مع سواك ؟ . فهل مشيت خلفى لترى الأبواب التى تفتح على مصراعيها ترحيباً بمقدمى ؟ ! وهل أحصيت الرجال الذين يشقَوْن أو يسعدون بحبى ؟ . . أتقول : « تقدمينى إلى بيتك » ؟ . . لن أتقدمك إلى بيتى ياسيدى ، فأرنى ما أنت فاعل ! . ما لى ولك ؟ وأنت وشأنك ، وأنا وشأنى ، أما بيتى فلن تعرف إليه سبيلاً !

— إنك لا تعلمين من أنا أيتها الحسناء !

— كيف لا ؟ . . وأنت « ديمتريوس » صانع تمثال إلهتى ، وعشيق أميرتى ، وسيد مدينتى ! . . . أما فيما يتعلق بى ، فأنت عبدى ، لأنك رأيتنى ، فوقعت فى أسر حبى !

ثم انحنت نحوه قليلاً ، ومالت برأسها البديع ، وقالت :

— نعم نعم ! أنت تحبنى ! . . فلا تقطع علىّ كلامى ، فإنى أدرَى بما تنوى أن تقول . . . ألستَ الذى يحَبُّ ولا يُحِبّ ؟ . . ألست المحبوب المعبود من كافة نساء الإسكندرية ؟ ألم تضرب

بحب «غليسيرا» — وهى التى امتنعت على «أنطيوخوس» — عرض الحائط ؟ ألست أنت الذى أمرت جواريك أن يطردن «ديموناسا اللسبية»، ويطرحنها عارية أمام بابك، لما اقتحمت عليك فراشك، فأقسمت المسكينة بعدها أن تموت عذراء ؟ ! وهل تظن أنى أجهل نبأ «كاليستيون» الشهيرة بجمالها، التى ليأسها من وصلك اشترت البيت المواجه لبيتك، لتتجرد لك وتبدو نصف عارية .. لعل وعسى ... ؟ ! إنك تحسبنى أجهل كل ذلك، ولكن الغانيات لا تخفى عليهن خافية ! . .

وكان «ديمتريوس» يحدق ببصره فى «كريزيس»، دون أن يسمعها . . فمضت تقول :

— نعم، إن كل هذا لا يعنيك، لأنك هائم بى . . . وأراك ساهماً تتأمل فى جمال عينى، وسواد لحظى، وحلاوة ثغرى، ولون شعرى . . ولعلك تضرب أخماساً لأسداس عمن أحببت، وكم أحببت . . ولكن هذا الذى كان حلالاً لغيرك، هو اليوم حرام عليك !.. وفى العام الماضى رقصت عارية أمام عشرين ألف نسمة، ومع ذلك لن تحظى برؤيتى عارية ! . . . وستبقى جاهلاً أمرى، وسرى، وشعورى، وحقيقة جمالى، وروعة غرامى، لأنك رجل أخرق قاس، بلا شعور ولا قلب ... رجل جبان

بغيض ! . . ولست أدرى كيف لم تبلغ بامرأة منا كراهيتك بحيث تقتلك أولاً وتثنّى بأميرتك . . .

فأمسك « ديمتريوس » بذراعها بشدة ، حتى جثت . . فاستجمعت قواها ، وردته عنها قائلة :

— آه ! . . . لست أخشاك يا « ديمتريوس » ، ولو كنت قوياً كـ « أطلس » ، وكنت ضعيفة كعذراء ولهى بين ذراعى حبيبها . . أنت تريدنى ، وهذا سر ضعفك ، وأنت تتمنى أن لو ترانى متجردة من فرعى إلى قدمى ، لأنك تتوسم جمالى ، والحق أنى جميلة ! . . والآن وقد صار ضوء القمر أضعف من نور الشموع فى خدرى ، ولا يلبث الظلام أن يكتنفنا ، فدع ذراعى لأنك تؤلمنى . . ودعنى أنهض . . .

وساد بينهما صمت عميق . . ثم قال « ديمتريوس » :

— دعينا من هذا كله يا « كريزيس » . . وأنت تعلمين أننى لا أريد أن أقهرك على شىء ، ولكن بحقك ، دعينى أتبعك . . ومهما يكن من كبريائك ، فإن افتخارك برفض « ديمتريوس » يكلفك ثمناً غالياً . .

وظلت « كريزيس » صامتة . . فعاد إلى الكلام بلهجة أرق :

— مم تخافين ؟

— أخافك لأنك اعتدت حب غيرى إياك . . أتعرف ما يكلفه حب غانية لا تحب ؟ !

فبدأ صبره ينفد :

— إنى أقدم إليك ذهب العالم ، وهو عندى فى مصر .

— وهو عندى فى شعرى ! . . إنى مللت الذهب ، ولا أبتغيه . . ولست أسألك إلا ثلاثة أشياء . . فهل تجيب سؤلى ؟ !

وظن « ديمتريوس » أنها ستطلب المستحيل ، ونظر إليها متسائلاً ، قلقاً . . ولكنها ابتسمت ، وقالت متمهلة :

— أطلب مرآة فضية تعكس فى عينىّ صورة عينىّ !

— ستكون لك ، وماذا أيضاً ؟ أسرعى فاذكرى ما تطلبين ؟

— أطلب مشطاً من العاج الأبيض المنقوش ، أغرقه فى شعرى الذهبى ، كالشبكة فى مياه مضيئة . . .

— ثم ماذا ؟

— ولكن عدنى بالمشط الذى أطلب !

— لك ذلك . . وبعد ؟

— أريد عقداً من اللؤلؤ أزين به نحرى عندما أرقص لك

فى خدرى رقصات العروس فى بلادى . .

فرفع حاجبيه مندهشاً . . وقال :

— أهذا كل ما تطلبين ؟

— وهل ستعطينى العقد ؟

— أعطيك كل ما تشتهين !

— كل ما أشتهى ؟ ! . . وهذا ما أردت أن أسمعه منك . .

وهل لى أن أتخيّر وأخصص ما طلبته من هدايا ؟

— بالطبع .

— أتقسم لى على ذلك يا « ديمتريوس » ؟

— أقسم لك !

— وبم تقسم ؟

— بما تشاءين . .

— أقسم لى بـ « أفروديت » التى صغت لها مثالاً !

— أقسم لك بـ « أفروديت » . . ولكن لم كل هذه الحيطة ؟

— لأنى لم أكن مطمئنة . . والآن اطمأن قلبى . . .

ثم رفعت رأسها . . وقالت :

— لقد اخترت هدايای . . .

فبدا على « ديمتريوس » شىء من القلق ، ونظر إليها

مستفسراً . . فقالت :

— أتحسبنى أقبل أية مرآة فضية تبتاعها لى من تاجر أزميرى ؟ ! كلا ! . إننى أطلب مرآة صديقتى « باكيس » التى اغتصبت منى فى الأسبوع الماضى عاشقاً ، وفاخرتْ بذلك بين أترابى . وهذه المرآة عزيزة عليها ، لأنها كانت للغانية « روديبس » ثم لـ « سافونة » ، وهى لذلك تخبئها فى مكان حريز ، تحت الحجر الثالث من هيكل البيت ، فاذهب إلى دارها ، بعد خروجها مع جواريها ، ولا خوف عليك . .

— هذا جنون مطبق ! أتحسبيننى أقدم على السرقة فى سبيل مرضاتك ؟ !

— ألست تهوانى ؟ كنت أظن ذلك . . وما لى وهذا ؟ أفلم تقسم لى ؟ . . أظنك أقسمت ! . . ومع ذلك فأنت فى حلّ إذا أردت . . .

ومع أنه أدرك أنها ترمى إلى تضييعه وإذلاله ، فقد استسلم إليها صاغراً :

— إنى فاعل ما تريدين .

— وإنى على يقين من ذلك . . ولكنك ترددت على ما أرى ، فهى هدية تفوق سواها . . وما كنت كذلك لأطلب منك

مشطاً عاجياً عادياً، من المعروض للبيع فى حوانيت المدينة . .
إنك أقسمت علىَّ أن أعيِّن ما أطلب . . أتذكر قسمك ؟ . . إن المشط الذى أطلبه هو مشط زوجة كبير كهنتنا . . فهو أنفس من مرآة «روديبس» . . إنه مشط تاريخى كان يزين شعر ملكة من فراعنة مصر .

ولذلك حال لون عاجه إلى الصفرة من القِدَم ، ونقش عليه رسم غادة بين زهر اللوتس . . يا له من مشط بديع ! وما أسعدنى بأنك ستقدمه لى ! . . ولست أريده لقيمته وحسب ، بل انتقاماً من هذه المرأة الخائنـــة . . لأنى فى الشهر الماضى قدمت إلى الإلهة « أفروديت » شالاً جميلاً أزرق ، فرأيته فى اليوم التالى على كتفى زوجة كبير الكهنة هذه ! ألست ترى أنى محقة فى الانتقام منها ياحبيبى ؟

— ولكن كيف لى الحصول عليه ؟

— إنى أقدر ما سوف تلقاه من الصعاب ، فهى كمصرية تضفر شعرها مائتى ضفيرة ، كغيرها من بنات جنسها . وأنا أطلب أن يكون لى مشطها غداً ، فعليك أن تقتلها فى سبيل برك بقسمك .

ومطت شفتيها ساخرة بـ « ديمتريوس » الذى كان ناظراً

إلى الأرض وهى تتكلم .. ثم استطردت :

— أما العقد الذى أطلبه فهو العقد ذو السبعة الفروع الذى يزين جيد « أفروديت »

فوثب « ديمتريوس » ذعراً ، وحدجها بنظره ، صائحاً :

— وَىْ ! .. كنى سخرية بى .. أأسرق المعبودة ؟ .. إنى لن أعطيك مما سألت شيئاً ..

فمدت يدها الجميلة ، وغطت بها فمه بدلال .. وقالت متلطفة :

— لا تحنث يا حبيبى ، لأنك ستعطينى ما سألتك إياه عن طيب خاطر ، وستأتى عندى غداً مساء ، وبعد غد ، وكل ليلة ، ما طاب لك .. وسأكون فى انتظارك دائماً ، مرتدية ما يعجبك من الثياب ، متبرجة كما يروق لك .. فإذا رغبت فى حب رقيق ، دللتك كطفل محبوب .. وإذا تعطشت إلى غرام عنيف ، أطفأت غليلك .. وإذا آثرت الصمت والسكون ، فسترانى كالناعسة .. أما إذا شئت أن أغنيك ، فلن تجد من تبذنى فى فنون الموسيقى وأغانى البلاد كلها ، لأنى أعرف منها ما يشبه خرير الماء ، وما يشبه قصف الرعود .. ومنها الساذج المطرب البرئ الذى لا تستحى البنت أن تنشده فى حضرة أمها ، ومنها الخليع الفاجر الذى تحمر من سماعه

وجوه الرجال ، قبل النساء . . أما الرقص فلك منى فيه ما ينسيك العالم وما فيه . . فإن شئت رقصت لك كاسية أرفل فى أنفس الثياب ، أو فى أشف الغلالات ، أو عارية كما ولدتنى أمى . . وإن موسيقى تلك الحركات لكفيلة بأن تلهب شبابك بسعير غرامى . . وعند نهاية الرقص تكون البداية . . وسترى عجباً فى خدر جمع من الطُرف والتحف ما لم تره عين ولم تسمع به أذن . . سترى حقيقة جمال « كريزيس » التى لم تحظ إلا بالنظر إلى محياها ، ولم تسمع إلا باسمها . . ستراها بين ذراعيك ، مستسلمة إليك تحترق فى جهنم البدن ، وترتوى من رحيق القبل ، فتذهل عن كل ما فى العالم ، ويُغشَى عليك بين ضغط ذراعيها ونفور نهديها . .

فصوَّب إليها « ديمتريوس » نظرة بلهاء ، ردت عليها بقولها :

— ومن أجل هذا ، وأكثر منه ، أفلا تهدينى تلك المرآة القديمة ، والمشط العتيق ، والعقد اللؤلؤى ؟

وأجابها « ديمتريوس » ، مدلهَّاً :

— سيكون كل ما طلبت .

ومد يديه متوسلاً ، فمالت نحوه « كريزيس » ورشقته بنظرة أخيرة من لحاظها الفاتكة ، سلبت بها ما كان باقياً له من اللب . . وبقبلة عجلى طبعتها على فمه ، قضت على مهجته ونُهاه . . .

وصاحت الغانية :

— آه . . لقد كنت واثقة من ذلك . . وسأعطيك ، مقابل عقد « أفروديت » ، من القبل الحرّى على فمك أكثر من عدد اللآلئ فى البحار . . .

ولما أفاق من دهشته ، رأى عن بعد خيالها ، وهى منطلقة ، تتهادى فى ثوبها العسجدى ، الذى تحوّل ظلاً قاتماً . . .

فدار على عقبيه متجهاً إلى المدينة ، وقد انحنى رأسه من مذلة الانكسار ، ووطأة العار . . .

(٦)

فى غابة أفروديت

كان معبد « أفروديت » خارج أسوار المدينة ، فى جوار غابة كثيفة من الحدائق الغناء ، والجنان الفيحاء ، تحيط بها دائرة من البيوت الصغيرة ، المتشابهة ، البديعة البناء ، طولها نحو تسعة أميال ، وارتفاعها اثنتان وثلاثون قدماً ، وعددها ألف وأربعمائة بيت ، خصصت لإقامة مثل هذا العدد من الغانيات اللواتى كتب عليهن القدر أن يعشن فى جحيم الهوى . . وكان لكل بيت باب من النحاس الأحمر عليه مطرقة تحتها لوحة صغيرة منقوش عليها اسم الغانية التى تسكنه . وكان لكل غانية مَذْبَحٌ من حجر الجرانيت الأحمر ، فوقه تمثال معبودتها الذى أتت به من وطنها ، تصلى له على طريقتها ، وبلغة بلادها . . وتحرق أمامه البخور ، وتنثر عند قدميه أوراق الورد وأغصان الآس ، وتبثه مكنون صدرها من ألم وأمل ، ومن ترح وفرح . .

وكانوا — إذا قضت الغانية نحبها — يضعون تمثال معبودتها فى تابوتها، ليحرس جسدها فى لحده . .

أما معبد « أفروديت » ، فكان بناء فخماً، طوله مائة وست وثلاثون قدماً ، تحيط به من جميع الجوانب درجات عددها سبع عشرة درجة ، وله اثنا عشر باباً مصفحاً بالذهب ، وحول المعبد رواق له أعمدة ، ستة وثمانون عموداً ، وعلى الجدران نقوش ورسوم تمثل ألوان الحب بين البشر والحيوان والآلهة جميعاً ، كما كانوا يفهمونها أو يتخيلونها . . وكان ذلك فى عرفهم أمراً عادياً لا حياء فيه ، ويتحدثون عنه بملء أفواههم !

وكانت هذه الغابة تجمع أجمل نساء الشرق، اللواتى أتين إلى الإسكندرية من كل أقطار الأرض ، وهى الغابة التى قصدها فى ذلك اليوم «ديمتريوس» تخلصاً من عذاباته الروحية والجسدية .

— تطهّر أيها الأجنبى .

فقال « ديمتريوس » :

— سأدخل طاهراً . .

وغمست حارسة الباب الجميلة طرف شعرها فى الماء ، ومرت به على جفونه ، وشفتيه ، وأصابعه ، لتطهر عينيه ، وفمه ، ويديه . .

ثم أوغل فى غابة « أفروديت » .

ورأى من خلال أفنان الأشجار القاتمة أرجوان الشمس ينطفىء . . . فذكّره ذلك المساء بمساء اليوم الذى قابل فيه « كريزيس » التى فتنته ، وأضلته . . .

حقاً ، إن نفسية المرأة من البساطة بحيث لا يكاد الرجل يصدق أو يتصور . . وحيثما يوجد خط مستقيم ، يبحث الرجل بعناد عن خط معوج متعرج . . فيجد الفراغ ، ويضل فيه . . وكذلك كانت روح « كريزيس » صافية كروح طفل صغير ، فظهرت لـ « ديمتريوس » خفية خفاء المشكلة العويصة . . ولما غادرته على رصفة البحر ، عاد إلى داره كأنما كان يسبح فى حُلْم . وكلما فكر فيما طلبته إليه ازداد حيرة وعجزاً عن تفسير غرضها . فماذا كانت تريد بتلك الهدايا الثلاث ؟ إن من المستحيل عليها أن تحمل أو تبيع مرآة مشهورة مسروقة ، أو مشط امرأة مقتولة ، أو عقد لآلئ المعبودة . . وإن هى حفظتها عندها كانت مهدَّدة كل يوم بمصيبة اكتشافها . . . فلماذا إذن طلبتها ؟ ألكى تحطمها ؟ ! إن من يعرف النساء مثله يحكم بأنهن لا يتمتعن بالمتاع المستور بل المنشور ، حبًّا فى الظهور . . فبأى حدْس حكمت بأنه أهل لأداء هذه الأعمال الثلاثة الخارقة للعادة ؟ !

لا غرو أنه لو أراد خطف « كريزيس » من بيتها لتكون رهن

مشيئته ، خليلة ، أو جارية ، أو مايشاء ، لما استعصى عليه ذلك . . بل إنه لو أخمد أنفاسها ، لما كان عليه من رقيب أو حسيب .

وكانت « كريزيس » تعلم ذلك حق العلم ، ومع ذلك اجترأت . . وكان كلما استعرض طريقتها فى تقديم نفسها وشروطها ، زاد بها ولعاً وإعجاباً . . فما أكثر النساء اللواتى يماثلنها جمالاً . وتقدمن إليه بطريقة متبذلة . . أما هى فلم تطلب حباً ، ولا ذهباً ، ولا حلياً . . بل طلبت ثلاث جرائم منكرة غير معقولة ، وكانت تستغويه بقوة ! . . .

لقد عرض عليها كنوز مصر كلها . . فلو أنها قبلتها وتهافتت عليها ، لما أعطاها شيئاً ، ولملها واجتواها قبل أن يحظى بها . . فالجرائم الثلاث ثمن فادح ، ولكنها جديرة به ، لأنها امرأة واثقة من نفسها تعرف قدر هبتها . . فعاهد النفس على المضى فى هذه المخاطرة الغرامية ، وخشى أن يصيب عزمه الفتور ، فبادر إلى « باكيس » ، فوجد البيت خالياً ، فأخذ المرآة الفضية . . ثم قصد إلى حدائق « أفروديت » كما ذكرنا . ولما مرّ « ديمتريوس » أمام البيوت التى تعرض فيها الغوانى كما تعرض الزهور ، سار الهوينا ، ينهب بنظره حسنهن . . وكان فى وسع أية امرأة فى ذلك المساء أن تفتنه ، إذا ظلت ساكتة ساكنة

لا تتكلف حرارة الغرام ، ولو كانت غير جميلة . .

وظل سائراً يسمع النداء تلو النداء ، فلا يعيره إلا أذناً صماء . .

حتى مر بصبية حديثة السن . . فقالت :

— أما من سبيل إلى اجتذابك ؟

فابتسم لهذه العبارة المتواضعة ، واختارها . . .

فطارت البنت فرحاً ، وجاءته بتين وعنب وكعك وعسل ونبيذ ، وقدمت مع هذا كله نفسها . . فخانت منه التفاتة إلى الحائط ، فقرأ اسم « كريزيس » . . فسألها من تكون ؟ . .

— إن صاحبتى أجمل من حملت هـذا الاسم ، لأنها « كريزيس » الجليلية .

— أو تعرفينها ؟

— إنها صديقتى الكبيرة :

— إذن فحدثينى عنها ؟ ومن أين جاءت ؟ وأين تسكن ؟ . ومن تحب ؟ قولى لى كل شىء عنها ! . .

فقالت له :

— إذن فأنت بها مستهام ؟ !

— هذا لا يعنيك . . ولكن حدثينى بكل ما تعرفينه عنها . . أريد معرفة كل شىء . . وهل لها أصدقاء سواك ؟

— نعم، لها امرأة يهودية فقيرة من بلدها، تدعى «شيميريس»

— وأين تقطن ؟ أريد أن أراها . . .

— إنها تنام فى الغابة منذ عام بعد أن باعت بيتها.. ولكننى أستطيع أن آخذك إليها، فهى أعرف منى بـ « كريزيس » . .

. . . . . .

وبعد مسير طويل، وقفت . . وقالت :

— هنا . . .

وكانت « شيميريس » جالسة القرفصاء على العشب، بين شجرتين، وإلى جانبها تيس زانته بسلسلة ذهبية، هى آخر ما بقى لديها من أيام الرخاء . .

فقالت الصبية :

— قفى يا « شيميريس »، فهنا رجل له كلام معك . .

فنظرت إليه اليهودية ولم تتحرك . . فدنا منها « ديمتريوس » وسألها :

— أتعرفين « كريزيس » ؟

— نعم . .

— أترينها كثيراً ؟

— نعم . .

— أيمكنك أن تحدثيني عنها ؟

— لا . .

— ولم لا ؟ أفلا يمكنك التحدث إليّ عنها ؟

— لا . .

فدهشت الصبية . . وقالت لها :

— حدثيه عنها مطمئنة ، فهو يحبها ، ويريد بها خيراً .

— إني أرى جلياً أنه يحبها ، وما دام يحبها فهو يريد بها شراً . . إذا كان يحبها ، فلن أتكلم !

فارتعش «ديمتريوس» من الغيظ ، ولكنه لزم الصمت . . فقالت له اليهودية :

— هات يدك ! . . وسأنظر هل أصبت ؟ . . .

وأخذت يده اليسرى وقلبتها على نور القمر ، فقال لها «ديمتريوس» :

— ماذا ترين ؟

— إني أرى . . . أفيمكنني أن أصف ما أرى ؟ . . وهل تشكرني على ذلك ؟ . . أو على الأقل هل تصدقني ؟ . . إني أرى الهناءة كلها ، ولكن في الماضي . . وأرى أيضاً الحب كله ، ولكنه يغيب في الدم . . .

— دمى ؟

— دم امرأة ، ثم دم امرأة أخرى ، ثم دمك بعد حين . . .

فهز « ديمتريوس » كتفيه . . وكانت الصبية فى تلك الأثناء قد فرت من الهلع . . فقالت « شيميريس » :

— إنها خافت ، ومع ذلك فليس هذا يعنيها ولا يعنينى . . فدع المقادير تجرى فى أعنتها ، ما دام ليس فى وسعنا أن نقف عجلة الحوادث . . وهذا مكتوب عليك قبل أن تولد ، فاذهب . فلن أتكلم بعد .

وأفلتت يده .

(٧)

الحب والموت

« دم امرأة ، ثم دم امرأة أخرى ، ثم دمك بعد حين » . . .

كان « ديمتريوس » يردد هذه الكلمات وهو يكاد يختنق .

كريزيس ! كريزيس ! كريزيس !

وكان ذلك الاسم يضرب فيه كالحمى ، وهو يقول لنفسه :

— أريد أن أرضيها ، وأن أتسلط عليها ، فآخذها بين ذراعى ، وأهرب بها إلى مكان بعيد . . إلى سوريا ، إلى بلاد الإغريق ، إلى روما . . إلى أى مكان ليست لى فيه عشيقات ، ولا لها فيه عشاق . . هذا ما أريده حالاً دون إمهال . . والآن فلأذهبن فى طلب المشط ، هديتها الثانية . .

وخف فى سيره

. . . . . .

وكانت زوجة كبير الكهنة تجلس بعد غروب الشمس على

مقعد رخامى يشرف على البحر ، ووراءها الغابة . . وكان ديمتريوس يعلم ذلك ، لأن هذه المرأة — وكانت مصرية تدعى « تونى » — هامت به يوما ما ، وقالت له : إذا أردت أن ترانى فتعال إلى هناك .

فذهب إليها فألفاها جالسة ، مغمضة العينين ، مستندة إلى الخلف ، مرسلة اليدين . . وكانت فى ثوب خفيف أرجوانى لامع ، لا نقش ولا زخرف فيه خلا نجمين أسودين على الثديين ، سمراء غليظة الشفتين . رشيقة القامة ، نحيلة الخصر ، وكانت ناعسة مستغرقة فى حلمها . .

فجلس ديمتريوس إلى جانبها فى سكون ، ومد يده فى خفة إلى غلالتها المفتوحة من جانبها حتى خصرها ، فلم تستيقظ تونى أثناء ذلك ، وتغير حلمها شيئاً فشيئاً ولم ينته ، واشتد تنفسها ، وتمتمت بجملة طويلة مبهمة ، ومالت برأسها الملتهب ، فسحب ديمتريوس يده متلطفاً . . .

وكان البحر الأبدى يتموج صاعداً حتى يتاخم آخره نجوم الليل . . أو كأنه صدر كاهنة أخرى يمتد حتى النجوم . . وكان ضوء القمر يزهو على صفحة البحر . . وظلت تونى نائمة ، ورأسها مائل ، يكاد جسمها يكون عارياً من خلال غلالتها

الملونة .. وكان نور القمر يقترب منها حتى ارتفع على جسمها ولامس شعرها ، فبدا له المشط الملكى الذى طلبته كريزيس . . فأمسك المثّال وجه تونى بين يديه ، ووجهه إليه ، ففتحت عينيها النجلاوين :

— ديمتريوس ! . . ديمتريوس ! . . أهذا أنت ؟ . .

وألقت بذراعيها من حوله ، وهى تغمغم بصوت يصدح بهنائها :

— أواه ! . . أهذا أنت قد أتيت أخيراً ؟ ! أنت هنا ! . . أأنت ديمتريوس الذى يوقظنى بين يديه ؟ . . أأنت ابن معبودتى ، يا إلٰه حياتى ؟ ! . .

فتراجع ديمتريوس . . فلحقت به فى وثبة واحدة :

— مكانك ! . . لا تخف شيئاً ! . . لست بالمرأة التى يخافها رجل مثلك ، لأنها تحوطها سلطة الكاهن الأعظم . . فانس لقبى يا ديمتريوس ومكانتى . . لا يبقى للمرأة اسم وهى بين يدى حبيبها . . لست أنا التى تفر عنها ، وما أنا إلا امرأة تحبك ، ولا يعلو صدرها الآن ويهبط إلا بذكرك .

فلم ينبس ديمتريوس . . واستطردت :

— إنى أعرف من تحبك ، ولا أطمع فى أن أكون

خليلتك . ولست أتطلع إلى منافسة مليكتى ، لا . . فافعل بى يا ديمتريوس ما تشاء . . خذنى كأقل فتاة مسكينة من اللواتى ينتظرن على طول الطريق حسنة حب مختلس . والواقع أن الآلهة لم تهبنى ما وهبته أولئك النساء . . فأنت على الأقل لك الجمال الذى تفوح منه رائحة الآلهة ! . .

فنظر إليها ديمتريوس فى صميمها . . وقال :

— وما الذى تزعمين يا شقية أنه يفوح من الآلهة غير . . .

— الحب . . .

— أو الموت ! . .

فهبت قائمة :

— ماذا تريد أن تقول ؟ الموت . . ! نعم . . الموت . . ولكن ما أبعد الموت عنى ! . . إنه بعيد جداً بُعْد ستين عاماً . . ثم أفكر فيه أو يخطر لى . . فلماذا تذكر الموت يا ديمتريوس ؟

فقال ببساطة :

— الموت هذا المساء .

فانفجرت ضاحكة من الخوف وهى تقول :

— هذا المساء ! ؟ لا ! لا ! . من قال ذلك ؟ . ولم أموت ؟ . . أجبنى ! . تكلم ! إن هذا تهكم مرعب . . !

— حُكِم عليك . .

— ممن ؟ . .

— من القدر المحتوم . .

— وكيف عرفت ؟

— لأن لى فى قدَرِك يداً . .

— وهل يطلب قدرى أن أموت ؟

— يطلب قدرك أن تموتى الساعة ، على هذا المقعد ، بيدى . .

وأمسك بمرفقيها ، فبردت أطرافها ، وقالت فى فزع :

— ديمتريوس ! . . إننى لن أصيح . . لن أنادى أحداً . .

فدعنى أتكلم . . .

ثم مسحت جبينها الذى كان يتصبب عرقاً :

— إذا كان الموت يأتينى منك ، فخبذا الموت ! . . إنه سيحلو لى ، وأقبله ، وأريده . . ولكن اسمع . .

ثم جذبته إلى ظلام الغابة الحالك ، وهى تتعثر بكل حجر :

— إذا كان فى يديك كل ما تعطينا الآلهة . . الرعشة التى تمدنا بالحياة ، والتى تنتزعها منا . . فامددهما يا ديمتريوس : يد الحب ، ويد الموت . . كى أقضى نحبى دون أسف . .

فالتفت إليها صامتاً ، فقرأت فى عينيه الرضا . فتجلت

مرة ثانية ، ورفعت وجهاً جديداً أشرق فيه الحب فوق الخوف . . ولم تكلمه . . ولكن صوت تنفسها كان يغنى خافتاً ، كأنها دخلت فى الهوى قبل العناق وفازت بمناها ، فى سعادة أبدية . . . وسها عشيقها عن قتلها ، فصاحت به :

— اقتلنى ! . اقتلنى إذن ! . ماذا تنتظر يا ديمتريوس ؟ . .

فهم قليلاً متكئاً على راحة يده ، ونظر إلى تونى التى كانت شاخصة إليه بعينين واسعتين زائغتين ، واستل من شعرها دبوساً ذهبياً طويلاً ، أغمده تحت ثديها الأيسر . . .

ثم قص شعرها ، وأخذ المشط فخبأه فى ثوبه ، ومضى لطيته ، فى طلب عقد أفروديت ، غير تارك للفكر عليه من سلطان . . .

(٨)

سرقة العقـــد

لم يدخل الهيكل من بابه الكبير، بل من باب خلفى خفى فى الغابة بين قبور عظماء الكهنة .. ونزل القبو، فهدأت رطوبة الأرض من ثائرته . وقصد الساحة التى أقيم فيها تمثال المعبودة أفروديت . وكانت أشعة القمر تسطع عليها فيتلألأ عقدها ذو السبعة الصفوف حول نحرها . وكانت تلمع بين ثدييها لؤلؤة فريدة كبيرة، كأنها هلال يزهو بين سحابتين مستديرتين .. تلك كانت الجواهر المقدسة، التى تكونت من قطرات الماء المتساقطة من المحارة التى ولدت فيها « الزهرة » إلهة الجمال ..

فنسى ديمتريوس نفسه وهو ينظر إلى أفروديت ، وخيل إليه أنها تجسدت امرأة وتجلت له، ونسى أنها صنع يده . ذلك أن هوة سحيقة تفصل ديمتريوس الفنان ، عن ديمتريوس الفاجر الواقف الآن هنا .. فبسط ذراعيه إليها ،

وتمتم بصلاة خافتة . وتقدم إليها الهوينا ، ولمس إصبع قدمها الوردية ، لكى يتأكد أنها التمثال ! . . وصعد إلى جانبها مأخوذاً بجمالها ، ووضع يديه على كتفيها المرمريتين ، وأنعم النظر فى عينيها النجلاوين ، فارتعد ، وخارت قواه ، وظلت يداه تلمسان ذراعيها العاريتين ، وتضغطان خصرها الصلب ، حتى نزل بهما إلى ركبتيها ، ثم داعب جيدها ، ورفع العقد ، وأخذ يعبث بلآلئه على ضوء القمر ، فخاف ، وأعاده ثانية ، وقبل يد المعبودة وعنقها وفمها العنابى المنفرج قليلاً . . وتراجع إلى آخر القاعدة ونظر بحنان إلى رأس المعبودة ، فتذكر سبب قدومه ، واحمر خجلا ، واعتذر لنفسه عن جنونه بكريزيس ، وفسره بأنه اضطراب عصبى مرضى . . وظل يتأمل أفروديت باحثاً عن نظراتها ، فمر الليل ، حتى مطلع الفجر ، وسطع التمثال تحت أشعة الشمس الذهبية .

وكانت قد هبت فى خارج الهيكل عاصفة من أصوات العصافير والطيور الصادحة فى الغاب ، وأصوات نساء ضاحكات وراء الأسوار . . ونشطت حركة النهار ، وسمع ديمتريوس وقع خطى على درج المعبد الخارجى ، فتذكر أن اليوم يوم تقديم القرابين إلى « أفروديت » ، وفيه تقدم الفتيات إلى المعبودة

نذورهن . . فهم ديمتريوس بالفرار . . .

وكان بقاعدة تمثال أفروديت مخبأ يُفتح من الخلف بطريقة سرية لا يعرفها غير الكهنة وديمتريوس . . فكمن فيه ديمتريوس .

وفتحت الأبواب الذهبية ، ودخل موكب المصلين ، وتقدم الموكب ثلاثون غانية يحملن سلالاً مملوءة ورداً ، وحمامًا أبيض ، وأقنعة شفافة ، وأدوات زينة ثمينة . . وكن يرتلن بأصوات رخيمة .

ودنون من التمثال ، فمنهن من قدمت لأفروديت حجاباً أزرق من نسج يديها ، ومنهن من قدمت إليها طاقة ورد ، أو سواراً فضيًا فى شكل ثعبان ، ومنهن من قدمت إليها حمامًا من أزمير ، ومنهن من نذرت نفسها للهيكل .

وكادت الحفلة تنتهى ، والموكب ينفضّ . . فدخلت امرأة لا تحمل شيئاً ، فظن الجميع أنها ستهب المعبودة جمالها ، فنظر إليها الكاهن منتظراً أن تتكلم ، فأقبلت . ووهبت مرآتها ومشطها وعقدها الزمردى . . . فلم يفت ديمتريوس حركة من حركاتها ، وعصف بقلبه الهوى . . فظل متردداً . . وكان يزعم من هنيهة أنه برىء من جنون البارحة ، وأن

لا شيء يلقى به مرة أخرى فى طريق كريزيس . . ولكنه تبين خطأه فى زعمه ، ولم يحسب لها حساباً ، فلم تنفعه إرادته فى التغلب على الاضطراب الذى شعر به عند دخول كريزيس ، وكأنه عبدٌ شُدَّ وثاقه إلى مركبة النصر . . فأيقن أن الهرب ضرب من المحال .

وانتظر ديمتريوس حتى خلا المعبد ، فصعد إلى التمثال هادئاً ، واستل عقد اللآلئ الأصيلة ، ودسه فى جيبه ، وخرج دون أن يؤنبه الضمير . . .

(٩)

غـــرور

عرفت كريزيس خلال مأدبة أقامتها الغانية المشهورة باكيس ، أن ديمتريوس قد نفذ إرادتها ، فسرق المرآة ، فهو لا شك قد قتل أيضاً تونى امرأة الكاهن الأعظم ، واعتدى على حرمة المعبودة المقدسة ، لأن إنساناً فى مثل منزلته يعد السرقة أدنأ من القتل والاعتداء . . فاطمأنت إلى انتصارها على هـذا الرجل الذى كان طليقاً لا يتقيد ، صارماً لا يتأثر ، كافراً بالحب لا يشعر . . وكان الفضل للمرأة التى غلبته : كريزيس ، (ساره) ، من بلاد « الجليل » . . لقد فعل هذا كله من أجلها ، وهو عمل لم يأت بمثله عاشق من قبل لعشيقته . . ها هى ذى قد انتصرت على ديمتريوس المحبوب ، الحلم الذى لا يتحقق ، والرجاء الذى لا يرجى لقلوب النساء ، فقد عرض نفسه للخطر والمهانة والويل ، طائعاً مختارا . .

فأصبحت الآن تعبده ، كأن الجرائم الثلاث ترتفع فى نظرها إلى أعمال البطولة الخالدة ، التى لا تقوم بكل ما تهبه من حبها . . وسبح فكرها فيه وهى تنظر إلى مدينة الإسكندرية ، فعنّ لها فجأة خاطر جديد ، كادت تجن له . . وأخذت تناجى نفسها بقولها : إن ديمتريوس قد فعل هذا كله من أجلى ، فلم لا يقتل الأميرة برينيس ، وهو الجدير بالملك ؟ . . إذن أكون ملكة الإسكندرية ، حلم الأحلام ، وتاج كل مجد منذ ثلاثة آلاف عام ! . . وأكون سلطانة الدلتا ، وأفرع النيل السبعة حتى منابعه . . وأكون أميرة : صائس ، وبوباسطة ، وهليوبوليس ، وطيبة ، وديسبوليس ، والشلالات ، وجزيرة أرجو ، ومروى ، وأنس الوجود . . والولية الآمرة فى مائتين وألف معبد تردد فيها الصلاة للآلهة جميعاً . .

كل هذا المعلوم ، وكل ما سواه من المجهول ، كل هذا الملك العزيز ، وهذا السلطان على وادى النيل العريق ، سيصبح متاعاً للغانية كريزيس ؟ ! ورفعت ذراعيها ، وهى تكاد تختنق ، من نشوة المجد ، كأنها لمست بأناملها عنان السماء . . .

وفى تلك الحركة ، رأت عن يسارها ، طائراً كبيراً ، أسود اللون ، مديد الأجنحة ، يحلق متجهاً إلى البحر الزاخر . . .

(١٠)

حـــلم ديمتريوس

رجع ديمتريوس إلى بيتـه حاملاً المرآة والمشط والعقـد اللؤلؤى . . فرأى فى منامه حلماً تمثلت فيه مقابلته لكريزيس أول مرة على رصيف الإسكندرية ، رآها وهى تدعوه لأن يتبعها ، فسايرها ، ودخلا منزلها ، وزارا الغرف الأربع التى يتألف منها . وعرضت عليه كتباً قديمة قيمة فى الآداب والفنون ، وتماثيل مرمرية نادرة . . ووجد فى الغرفة الأخيرة ثلاثة أسرَّة مفروشة ، فحدث ديمتريوس نفسه بقوله : « أهذا منتهى حياة الإنسان ؟ . . أتُرانى اجتزت هذه الغرف الثلاث لأقف هنا فى غرفة الغرام ، التى لن أبرحها حتى أقضى ليلتى نائماً ممدداً كأنى فى قبر ؟ ! »

فخاطبته كريزيس ، وهى ترفع ذراعيها ، مشبكة يديها فوق رأسها ، مبتسمة :

— أيها الحبيب ! . . لقد طلبتنى فأتيت إليك . . فانظر إلىَّ الآن . . يا حبيبى . . هيت لك . . ولكن ليس حالاً ! . . فقد وعدتك من قبل بأن أغنى لك ، فلا بد من الوفاء . .

ثم جثت عند قدميه ، وبدأت تغنى من نشيد الإنشاد لسليمان الحكيم . . ثم بدأت ترقص ، فأخذ جسمها يتلوّى ويرتعش ، فعانقها عناقاً كله لذة وهيام وسحر . . وكان يحدق فيها ، لكيما يبدع من وقفتها تمثالاً جديداً .

. . . . . .

وفى اليوم التالى ذاع خبر سرقة مرآة باكيس ، ففرحت الغوانى اللواتى كن يحسدنها عليها ، وأخذن يتكلمن عن السرقة ، وعمن يكون السارق . . وتناقلت الألسن خبر مصرع امرأة الكاهن الأكبر ، فساد الجمهور اضطراب شديد ، وزاد فى جزعهم وهلعهم نبأ سرقة العقد اللؤلؤى الذى كان يطوق عنق المعبودة أفروديت ، وظلوا فى هرج ومرج ثائرين حائرين .

وتفرق القوم فى ساحات المدينة يتناقلون الأخبار ويذيعونها . وظل رجل وامرأة هما اللذين يعرفان سر اضطراب الجماهير ، وهما سبب هذه الجرائم : ديمتريوس ، وكريزيس .

وكان الرجل جالساً على صخرة بجوار الميناء ، وكانت المرأة واقفة فى آخر الميدان . . فرأت كريزيس شبح ديمتريوس ، وشعرت بوجوده دون أن تتبينه جلياً ، فعدت إليه ، تجرى ، ثملة من الكبرياء والاشتهاء . . وصاحت به :

— إنك إذن قد وفيت . . إنك قد وفيت ! . .

فأجابها ببساطة :

— نعم ، لقد أنفذت رغبتك .

فمالت بنفسها على ركبتيه ، وقبلته فى عناق جنونى ، وهى تغمغم قائلة :

— أحبك . . . أحبك . . . ولم أشعر قط بمثل ما أشعر به الآن ! . . أيتها الآلهة . . لقد عرفت حقيقة الحب ! . . انظر ياحبيبى ، إنى أعطيك ما لم أعطه أحداً من قبلك . . أنا التى لم أشته أحداً ، ما كنت أظن أننى أخضع لك هكذا وشيكا . . ولن أكتفى بهبة الجسد ، بل سأهديك أحسن وأخصّ وأطهر ما أملك ، وهو روحى البكر . . فهيا نرحل عن هذه المدينة يا ديمتريوس ونتوار فى مكان ليس فيه سوانا . . لنعيش هناك أياماً لم يعشها قبلنا أحد . . فما من عاشق فعل لأجل امرأة ما فعلته لأجلى . . وما من امرأة أحبت حبى إياك . . هذا مستحيل

لا يُصَدَّق . . ولا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك ، فالفرح يخنقنى . . انظر ، إنى أبكى ، وأعرف معنى هذا البكاء ، فهو منتهى الهناء . ، ولكن لم لا تجيب ؟ لم تلزم الصمت عنى ؟ ! . . ألا فقبِّلنى يا حبيبى ! . .

فلم يحرك ديمتريوس ساكناً ، وأنهض كريزيس ، ونفض ثيابه ، وقال بصوت هادىء :

— كلاَّ . . وداعاً ! . .

وعاد أدراجه الهوينا . . فوقفت كريزيس مشدوهة فاغرة فاها ، و يداها مرتخيتان بجوارها :

— ماذا ؟ . . ماذا ؟ . . . ماذا تقول ! ؟ . .

— أقول لك : وداعاً ! . .

— ولكن . . لكن . . ألست أنت الذى . . . ؟

— بلى . . وكنت قد وعدتك بذلك .

— إذن . . فلا أفهم . .

— سواء لدىَّ أفهمت أم لم تفهمى ، فإنى أترك هذا اللغز الصغير لخيالك . . وإذا كنت صادقة فيما تقولين ، فسيطول تفكيرك ، وتشتد حيرتك . . وهذا فراق بينى و بينك !

— ديمتريوس ! . . ماذا أسمع ؟ ؟ من أين أتيت بهذه

اللهجة ؟.. أأنت حقاً الذى يتكلم ؟! إننى أضرع إليك أن تفصح قليلا .. ماذا حدث بيننا ؟؟ إن هذا يكاد يحملنى على أن أضرب الجدار برأسى حتى أحطم رأسى ...

— أأنا بحاجة إلى أن أعيد عليك القول مائة مرة ؟! أجل .. إننى أخذت المرآة ، وقتلت الكاهنة تونى لأسلبها المشط الأثرى ، وسرقت العقد اللؤلؤى ذا الفروع السبعة .. وكان علىَّ أن أقدم إليك هذه الهدايا الثلاث جزاء تضحية واحدة منك ، وقد قدرتها ثمناً ... أليس كذلك ؟ .. والآن أصبحت لا أقدر لها هذا الثمن الباهظ .. فلن أطلب منك شيئاً ، فافعلى بدورك مثلى ، ولنفترق ! .. فواعجبا من أنك لا تفهمين موقفاً بسيطاً واضحاً إلى هذا الحد ! ..

— احتفظ بهداياك .. هل تحسبنى أفكر فيها ؟ وهل طلبتها منك ؟ .. هداياك ؟! .. ماذا أفعل بها ؟! إنك أنت الذى أريد .. أنت وحدك ! ..

— نعم .. أعلم ذلك .. ولكننى أعيد عليك القول مرة أخرى : إننى أنا الذى لا يريد ! .. وقبول الطرفين لا مندوحة عنه للقاء العشيقين .. فلا أستطيع بعد تفسيراً لرغبتى عنك ، وإلا خشيت أن تؤلمك كلماتى ..

— هل حدثك أحدٌ عنى ؟ .

— كلا .

— لا بد أنهم حدثوك عنى . . لا تنكر ذلك . . لقد رمونى عندك بالسوء . . . فلى أعداء ألداء يا ديمتريوس . . فعليك ألا تصغى إليهم ، فهم — وحق الآلهة — من القوم الكاذبين !

— إننى لا أعرف أعداءك .

— صدقنى ، صدقنى ياحبيبى . . إننى لا أنتظر منك سواك . .

فحدق ديمتريوس النظر إليها ، وقال :

— لقد فات الأوان . . وحظيت بك . .

— إنك تهذى ! وإلا متى كان ذلك ؟ وأين ؟ وكيف ؟

— لقد حظيت بك على رغمك . . وكل ما كنت أتوقعه منك نلته على غفلة منك . . والبلد الذى كنت تريدين أن نسير إليه سوياً قد أوصلتنى إليه ، فى الحلم ، ليلة أمس ! . . ولشدَّ ما كنت فتانة يا كريزيس ! . . لقد عدت من ذلك البلد ، ولن تستطيع إرادة بشرية أن تسوقنى إلى رؤيته مرة أخرى . . ولست معتوها حتى أضيِّع على نفسى ذكرى سعيدة ، لا تتكرر سعادتها ، والفضل لك فى هذا ، فقد أغنانى ظلك عن جسدك ، وخيالك عن حقيقتك ! . .

فلطمت كريزيس صدغيها بكفيها ، وصرخت :

— هذا فظيع ! . هذا فظيع ! . إنه يجرؤ على هذه الدعوى ، ويرتاح لها ! . .

— إنك تسرعت فى الحكم . . وقد قلت لك : إننى حلمت بك . . فهل أنت واثقة من أننى كنت نائماً ؟ . . وقلت لك : إننى كنت سعيداً . . فهل تحسبين السعادة وقفاً على الرعشة البدنية الداعرة ؟ . . إنك بانخاذك هذا الموقف المتخاذل تقللين من شأنك وتحقرين من قدرك . . إذ أنك لا تعرفين ألوان السعادة التى تنبت تحت قدميك ؟ . وهل تزعمين أنه يصعب على الذى ابتدع أفروديت أن يتخيل الحظوة بك ؟ . . إنى وإن كنت قد استمتعت بك فى الخيال . . لكننى لن أسمح لك بأن تفسدى علىّ خيالى ! . .

— وما نصيبى أنا . . أنا التى تحبك . . فيما أسمعه منك من الفظائع ؟ ! وهل قاسمتك السعادة التى سلبتنيها — أيها اللص — فى حلمك ؟ . . وهل سمع إنسان أن محباً كان من الأنانية بحيث يغتصب الحب كله ويستأثر به من دون المرأة التى تحبه ؟ ! . إن هذا يحيرنى ويكاد يسلبنى رشدى ! . . فتحول ديمتريوس عن نغمته الساخرة ، وقال وصوته يرتجف قليلاً :

— وهل رثيت لحالى عندما انتهزت فرصة اشتهائى ، فأصررت فى ساعة فتنتى ولوعتى وذهولى على أن أرتكب ثلاثة فعال منكرة ، كفيلة بأن تحطم حياتى ؟ . وخليقة حتماً بأن تترك لى ذكرى العار والشنار على ممر الأجيال ؟ !

— لم أفعل ذلك إلا لكى أجتذبك إلىَّ . . وما كنت لأحظى بحبك لو أننى بادرت فأسلمتك جسدى ورضخت لك . .

— إذن فقد أشبعت كبرياءك وطموحك ! وتملكتنى ، ولو فترة من دهرك ، فى إسار العبودية التى فرضتها علىَّ . . . فتألمى الآن بدورك . . إننى اليوم أستخلص منك نفسى !

— ديمتريوس . . إننى قد عبدتك ! . .

— نعم . . إن أحدنا عبد الآخر . . وإنما هو الثانى الذى يحب ! . . العبودية ؟ ! العبودية ؟ ! هذا هو الاسم الحقيق للولع . . . وليس للنساء إلا حلم واحد ، وفكرة فى الذهن واحدة ، هى إخضاع قوة الرجل بضعفهن ، والتسلط على إدراكه بخفتهن . . والذى تردنه حين تنهد أثداؤكن ليس أن تحببن أو أن تحاولن الحب ، ولكنكن تردن أن تربطن رجلاً إلى كعبكن ، وأن تحنين هامة رأسه حتى تطأنها بأقدامكن ! . . فإذا لم تستطعن التغلب عليه ، خفضتن له جناحكن ، وقبّلتنَّ

الفم الذى يسبّكن ، واليد التى تصفعكن ، بل والقدم التى تسحقكن ! . . إن الرجل الذى يأبى تقبيل أقدامكن الحافية يقضى كل لياناتكن إذا ما اغتصب حبكن اغتصاباً .. والرجل الذى لا يبكى عند ما تهجرن الدار كفيل بأن يحركن من شعوركن ... وصفوة القول أنكن إذا لم تستطعن أن تخضعن الرجل ، فعذركن الوحيد هو الخضوع له . . .

— أواه ! اضربنى إذا شئت ، وأحبينى بعد ذلك . . .

ثم ضمته إليها فجأة ، بحيث لم يستطع الإفلات من قبلتها إلا بالجهد الجهيد . . فقال لها :

— لات حين ضرب وحب !. إننى أمقتك . . فدعينى !.

ولكن كريزيس تعلقت بمعطفه قائلة :

— لا تكذب ! فأنت تعبدنى ! . ونفسك مترعة بحبى ! . ولكنك تخجل من أنك خضعت . . وتستنكف من أنك سرقت وقتلت . . فاسمعنى . . اسمعنى يا حبيبى . . إذا لم تجد ما يعزى كبرياءك فإنى أقسم لك أن أقوم بأية تضحية بعد اجتماعنا المأمول .

فتفرس فيها ديمتريوس وقال لها بدوره :

— وبم تقسمين ؟

— أقسم بأفروديت كما أقسمت أنت .

— إنك لا تؤمنين بأفروديت ، فأقسمى بالكائن الأسمى « يهوه » .

فابيض وجه الجليلية ، وقالت :

— لا يمكننى أن أحلف باسمه الكريم .

— أترفضين ؟

— إنه لقسم عظيم !

— ولذلك أريده !

فترددت لحظة ، ثم قالت بصوت خافت :

— أقسم باسمه الكريم . . فماذا تطلب منى يا ديمتريوس ؟

فسكت . فقالت له :

— تكلم ياحبيبى . . قل سريعاً . . إننى خائفة . .

— أطلب شيئاً تافهاً . .

— ماهو ؟

— لست أسألك ثلاث هدايا . . فهذا لم تجر به العادة والعرف . . ولكن يمكننى أن أطلب إليك قبول الهدايا . . أليس كذلك ؟

فقالت « كريزيس » فرحة :

— بكل تأكيد !

— هذه هى المرآة ، وهذا هو المشط ، وهذا هو العقد . . التى سلبتها لأجلك ، والتى ما كنت تنوين التمتع بها ، لأنه لا يمكن الظهور على مشهد من الناس بهذه الأشياء المعروفة المحصلة بالسرقة والقتل . أليس كذلك ؟

— وما الذى ترمى إليه ؟

— لقد فكرت فى ذلك . . فرأيت أنك ما دفعتنى إلى ارتكاب هذه الجرائم الثلاث إلا لتشبعى غرورك وقسوتك . . فالآن أطلب إليك أن تلبسيها !

— ماذا ؟

— أجل ! . . تلبسينها ، وتمرين بها فى المدينة ، فيقبض عليك الناس ويسلمونك إلى الشرطة . . وعندئذ يكون لك ما تريدين . . عند ما أزورك فى السجن قبل مطلع الشمس .

(١١)

اليـــوم المشهود

لما سمعت كريزيس ذلك ، هزت كتفيها وقالت لنفسها إنها ليست من السذاجة بحيث تفى بهذا الوعد الخطير، ولا تحنث بقسمها .. غير أنها سرعان ما شاقتها رؤية ما اغتنمه ديمتريوس حبًا فيه ، وأن تلمسه بيدها ، وأن تلعب به فى أشعة الشمس ، وأن تتملكه .. ولو لحظة واحدة من دهرها ، لتشعر بلذة انتصارها وقوة سلطانها .

أما التسلط على ديمتريوس فلن تعدم وسيلة أخرى إليه ، فتملى إرادتها . وكيف يزعم أنه قطع علاقته بها على حين أن غرامًا كغرامه لا تخمد جذوته فى قلب الرجل تمام الخمود ؟! فلا توجد حبيبة إلا ولها ركن خاص ، خفى أو جلى ، فى فؤاد الحبيب .. وقد يحدث أن مجرد لقاء عارض مع حبيبة قديمة ، أو مكروهة ، أو مهجورة ، يذكى فى القلب ناراً ، ويلد حبًا

جديداً أشد استعاراً !.. وكريزيس خير من يعرف ذلك. ومع أن حبها قوى شديد فليس جنونها يبالغ درجة المجازفة بحيانها لتفتن ديمتريوس..

واستعرضت ما طلبه منها ديمتريوس ، فثار فيها حب الظهور ، وتمثلت نفسها واقفة أمام جمهور الإسكندرية ، وفى يدها المرآة التى نظرت فيها سافو ، وقد توَّج شعرها المشط الملكى ، وزان نحرها عقد أفروديت .. كما ذكرت أنها ستلقى بعد ذلك من المساء حتى مطلع الفجر حبًّا مجنوناً لم تعرف ثورته ولا سورته امرأة قط .. فإذا ما تنصّف اليوم التالى ماتت دون مقاومة ... فياله من مصير منقطع النظير !.. ثم أغمضت عينيها قائلة لنفسها إنها لا تريد الخضوع لهذا الإغراء..

بيد أنها اخترقت حى « زاكوتيس » وقصدت حديقة « هرميس » حيث خبأ ديمتريوس مسروقاته ، بين القبور المهجورة ، ودخلت الحديقة والسكون مخيم .. وهى ترتجف لكل عثرة فى طريقها .. وكان الهواء يحمل رمالاً ناعمة تتغلغل فى شعرها .. ولما صارت بإزاء الصنم الذى له رأس ابن آوى اصْفرَّ وجهها ، ونظرت حولها حذرة وجلة ، لتستوثق من انفرادها .. ثم أخذت من قدم الصنم المكسورة عقد أفروديت

وطوقت به عنقها ، وأغمضت عينيها لتشعر ببرد اللآلئ على صدرها العارى ، ووضعت اللؤلؤة الفريدة فى دفء ثدييها ، ثم أمسكت بالمشط العاجى وزانت به شعرها ، ثم أخذت المرآة الفضية وطالعت فيها محياها ، فرأت بريق الفوز فى عينيها . . ثم أسدلت حجابها على رأسها ، وخرجت من الحديقة دون أن تخلع الحلى المخيفة . . .

كان الحزن سائداً المدينة خوف انتقام الآلهة من جراء هذه الجرائم . . . فاخترقت كريزيس غمار تلك الجماهير المضطربة وهى مستغرقة فى حلمها . وكانت جلبة الخلائق المستمرة وضجيجها يضاعفان من هدير البحر الهائج . . . ولما وصلت إلى جزيرة الفنار ، نضت عنها حجابها ، فظهرت عارية كالآلهة تحت أشعة الفنار الحمراء ، فتلألأت حليها كلها . . فانبعث فى لحظة واحدة مائة ألف صوت تهتف معاً :

— أفروديت ! . . أفروديت ! .

وتسلق البعض الصخور ، وارتقى البعض ساريات المراكب ، وصعد آخرون الأبراج المحصنة . . فغُمرت جزيرة الفنار بألوف من الخلق تسابقوا ليشهدوا كريزيس فى أبهتها ، وهى تصعد إلى أعلى الفنار ، كأنها تصعد إلى عنان السماء

(١٢)

ليلة كريزيس

قال السجان الشيخ لكريزيس وهو يحاورها :

— أراك حبيبة الآلهة . . ولو أننى — أنا العبد الفقير — كنت قد ارتكبت جزءاً من مائة جزء من الجرائم التى اقترفتها لعقلتْ قدمىّ ، ولقُطِّع جسدى ضرباً بالسياط ولمزق لحمى بالكلاَّبات ولصب الخل فى خياشيمى . . فإذا ما قضيتُ بعد هذا العذاب ألقيتْ جثتى طعاماً للضباع الجائعة فى الوادى القفر . . أما أنت ، أنت التى سرقت وقتلت ودنست كل مقدس فقد آثروك بسُمِّ نباتى مريح ، وأعدوا لك غرفة أنيقة . . فلاشك فى أن لك صلة بالقصر . .

فقالت له كريزيس :

— هات لى تيناً ، فقد جف حلقى . . فجاءها باثنتى عشرة تينة ناضجة فى سلة خضراء ، وتركها وحدها . . فجلست ، ثم

عادت فوقفت ، وضربت الحائط بقبضتيها .. وحلت شعرها ، ثم عادت فعقصته ، ثم اقتربت من النافذة واتكأت على حافتها .

وكان القمر يسطع فى سماء الليل الصافية ، فرجعت بها الذكرى إلى ليلة هجرت أرض الجليل ، منذ سبع سنين ، وتذكرت الفرسان الذين اختطفوها ، وذكرت الأشجار والغدران والسوسن النامى فوق الجبال .. ثم عرض لها شبح الموت فجأة ، فأنكرته ، وصاحت :

— أوّاه ! .. ماذا فعلت ؟ .. لماذا قابلت هذا الرجل ؟ لماذا فتنت به ؟ كيف لا أندم على ذلك ؟ فيالهذا القضاء المروع .. إمّا أن أعيش بغير حب ، وإمّا أن يطردنى الحب من الحياة !

ومرت بذهنها آيات من التوراة فى الحب وآلامه ، والدعارة وحزنها .. فارتعشت ، وأسندت رأسها بيديها تحاول أن تجمع شتات فكرها ، فخيل إليها أنها تمسك بجمجمة .. ومرّت بكفيها على جسمها فأحست كأنها تلمس هيكلاً عظمياً .. فثار بها حب البقاء وأبت قبول فكرة الفناء ، فناء هذا الجمال الرائع ، وهذا العقل النشيط وهذه الحيوية التى تتدفق من جسمها الغض .. وكيف أن هذا البدن الشائق سيفنى ويتعفن وهو يفيض حياة حارة ..

وفتح الباب بهدوء . . ودخل ديمتريوس . . . فاندفعت إليه كريزيس صائحة :

— ديمتريوس ! . .

ولما رأت فى عينيه الهدوء العميق ، برد الدم فى عروقها ، فقد كانت تتوقع حركة عطف عليها . . فلم يبرح مكانه ، وظل ساكناً لحظة ، منتظراً فى أدب أن تطلب منه شيئاً . . ولكنها لم تفعل ، فاستند إلى النافذة ، يشهد مطلع الفجر . . وكانت كريزيس جالسة مطرقة على سريرها الواطىء . .

فحدث ديمتريوس نفسه بقوله :

— ليت المأساة تنتهى هكذا . . فما أبغع اللهو ساعة الموت . . وقد انتهى ، فما يتعلق بى ، كل شىء . . وكنت أود ألا تنتهى حياة كريزيس بهذه الخاتمة الأليمة . لأن كل ذنبها أنها صرحت بأطماع تحلم بها النساء عادة ، ولكنهن يخفينها . . وددتُ أن لو سهلت لها سبيل الهرب إلى بلد آخر ، غير أن الجريمة افتضحت ، وصوت الشعب يطلب ضحية ، والحب ثمنه الموت . . .

ثم دخل الجلاَّد قائلاً ، وهو يبسم باحترام لصاحب الأميرة :

— ها هى ذى الكأس الصغيرة . .

فلزم ديمتريوس الصمت ، وأشاح بوجهه ، فرفعت كريزيس رأسها ذاهلة . . فقال لها السجان :

— لا تخافى ولا تحزنى . خذى الكأس . . ففيها الخلاص .

فمدت يدها ، وتناولتها متباطئة ، وأدنت شفة الكاس من شفتيها ، واتسعت حدقتاها ، وهى لا تخفض عن ديمتريوس بصرها ، وشربت السم المذاب فى مخدر معسول . . .

ولما تجرعت نصف الكأس قدمت نصفها الآخر إلى ديمتريوس ، فأباها ، فأتت على الكأس حتى الثمالة . . وأغمضت عينيها إغماضة الأبد . وقد أشرق وجهها بابتسامة فيها شىء من الاحتقار لديمتريوس . . لأنها أسمى وأروع من ابتسامة الحب . . لأنها ابتسامة الموت الساخر من عبث الحياة . . .

كانت تُدعى .. تاييس

(١)

فى باب القمر

نحن فى حانة يتردد عليها البحارة ، على مقربة من باب القمر بالإسكندرية ، يديرها زوجان وثنيان فقيران . . ولدت لهما « تاييس » . . الموعودة — من الفن ثم من الحب ، ثم من الهدى — بالخلود فى التاريخ . . وهى ما زالت تذكر أباها متربعا فى البهو ، طويلاً ، مهيباً ، هادئاً . . كأنه فرعون الذى كان المتسولون العميان يمجدونه فى أغانيهم المحزنة ، وهم جالسون القرفصاء فى مفارق الطرق . . وتذكر أيضاً أمها النحيلة الكئيبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة ، يملأه صوتها المنكر رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً . . وقد شاع عنها أنها ساحرة تتحول فى الليل إلى بومة لتلتقى بعشاقها ! . . غير أن تاييس قد تحققت من بطلان هذه الإشاعة ، إذ عرفت عن أمها أنها لم تشتغل قط بفنون السحر . . ولكنها كانت لشدة جشعها

وشحها ، تقضى سواد ليلها تحصى ، وتعيد إحصاء دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأمها البخيلة ، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها ، وتركاها كدجاجة هائمة فى حظيرة الطيور ، فمهرت مهارة لا تجارى فى سلب البحارة السكارى ، تتناول دراهمهم من أحزمتهم وهى تباسطهم بالأغانى الصبيانية ، وتمازحهم بالكلمات الشنيعة التى كانت تجهل معناها . . . تتنقل من ركبة إلى ركبة ، فى القاعة المختنقة برائحة الخمر والتبغ . . ثم تعود وبداها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات ، ووجهها مندّى برشاش الجعة المتطاير ، مخدَّش من اللحى الكثّة . . وتجرى لشراء أقراص الشهد من العجوز الجالسة بجوار «مشنّتها» أمام باب القمر . .

وهذه المشاهد تتكرر كل يوم . حيث يذكر البحارة ما لاقوه من الأخطار خلال اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون « النرد » و « الكعاب » . . ويطلبون وهم يحدقون أقداح الجعة . . . فتستيقظ تايس الطفلة — كل ليلة — على شغب السكارى وعراكهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المحار وسط الصخب والضجيج المتعالى . . وترى أحياناً على ضوء المصابيح المدخنة : المدى تلمع ، والدم يسيل . . .

فهى على ذلك لم تعرف الطيبة البشرية فى رِقّ عمرها إلاّ فى شخص « أحمس » الذى كانت تقاسمه المذلة . وأحمس هذا عبد البيت ، نوبى أشد سواداً من القدور التى يعنى بفركها وتنظيفها . . . لكنه كان طيباً كالليل الذى يُقضى فى نوم عميق لا يتخلله سهاد . وطالما وضع تايس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت لملوك أشحاء أعدموا الذين بنوها لهم ! . . وكان فى تلك القصص أيضاً لصوص حذّاق يتزوجون من بنات الملوك ، وسرارى يشيدن أهراماً ! . .

فأحبت تايس الصغيرة أحمس ، حب الطفلة للأم والأب والمرضع والكلب . وكانت تتبعه إلى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج الضامرة المنتفشة الريش التى ترفرف طائرة أمام مدية الطاهى الزنجى بأسرع من فراخ النسور ! . . وكان يصنع لها طواحين وسفناً بحجم راحة اليد . . وكانت إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له . وقد غطت الندوب جسده من الضرب ، ولكن كانت على وجهه مسحة الطمأنينة وراحة الضمير ، وسذاجة الطفولة ، يؤدى عمله الشاق صابراً ، مترنماً بأناشيد تبعث فى نفس البنت الرجفة والأحلام . .

فإذا سألته عما يقصده بذكر الملائكة الأطهار الأبرار الجالسين عند القبر يشهدون مجد المبعوث . . أجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عينى !. إنى أتغنى بذكر الملائكة لأن سيدنا المسيح قد صعد إلى السماء ! . .

فقد كان أحمس ، بين أولئك الوثنيين ، مسيحياً ، معمداً ، فى عهد تقاسى فيه الكنيسة ضروب الاضطهاد ، تُهدم الكنائس ، وتحرق الكتب المقدسة ، وتصهر الأوعية الطاهرة ، والمسارج ، ويجرد المسيحيون مما ملكت أيمانهم ، يتوقعون الموت فى كل لحظة . . حتى ساد الرعب طوائف الإسكندرية ، وبلاد العرب ، وبين النهرين ، وغيرها من بلاد الأمبراطورية الرومانية . . وسلطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الأساقفة والعذارى تمزقهم شر ممزق . . حتى جاء « القديس أنطوان » فشدد قلوبهم ، ونفخ فيهم من روحه المؤمنة الصبر على المكاره . . وكان اضطهاد العبيد خاصة أشد وأنكى ، فارتدّ كثيرون منهم خوفاً ، وهرب آخرون إلى الصحراء على أمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين ! . .

أما أحمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ،

ويختلف إليها ، فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر مبتهجاً بدين المسيح . . ولما شاهد أنطوان العظيم قبل رجوعه إلى الصحراء هذه الحمية الصادقة احتضن العبد الأسود ، ومنحه قبلة السلام . . .

وظل أحمس يحدث تاييس عما وعد الله المتقين من عباده . . تكون لهم القصور والجنات ، ويأكلون أعناباً ورماناً . . فقالت معجبة : إنها تود أن لو أكلت من رمان الله تعالى . . فأجابها : إن الذين عمدوا فى يسوع هم وحدهم الذين سيذوقون فاكهة السماء . فطلبت أن تعمد ! . فعمدوها سراً . .

. . . . . .

ونما غصن تاييس وازدهر حسنها ، فهامت بحب اللهو والمرح ، وتولدت فى نفسها ، وهى تنمو وتكبر ، رغبات مبهمة وأهواء . . فكانت ترقص وتغنى سحابة نهارها مع أولاد الشوارع ، وفى الليل تعود إلى البيت وهى لا تزال تغنى . . ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحمس الرقيق الرزين ، فلم تلحظ أيضاً اشتغال صاحبها وما كان يفوه به أحياناً من تهديد ووعيد كقوله : « سوف يفقد الأغنياء أموالهم ! » .. وذهب مرة إلى الساحات العامة حيث اعتاد فقراء

المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك بشّر البائسين الراقدين فى ظل الجدران العالية ، بتحرير الأرقاء ودنو يوم العدالة ، ومنّاهم بشرب خمر صافية ، والأكل من كل الثمرات فى ملكوت السموات ، على حين يكون الأغنياء جاثين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم ! . .

وذاع ذلك عنه ، وخشى السادة أن يغرى أحمس عبيدهم بالتمرد ، فاتّهم بسرقة « مملحة » من الفضة نكاية فى سيده ، وأنكر العبد التهمة ، لكن القاضى حكم عليه بالموت ، لأنه « عبد رقيق لا قيمة له ولا اعتبار » وقال له : « ستُسمَّر فى صليب يداك اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما . . » . .

وكانت تايس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة عند ما مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم تكن من سعة الإدراك بحيث ترى هناءة أحمس بحياته وموته على السواء . . وتولد فى ذهنها الضيق أن الصلاح يكلف الألم والعذاب ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغض الرقيق لا يحتمل عذاب التقوى ! . .

وكان لها قبل الأوان عشاق من صبيان الميناء ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون مساء فى ضواحى المدينة

مفسدين ، وتشترى بما ينفحونها به حلوى وزينة .

وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ إلى البيت شيئاً مما تربحه من النقود ، فكانت كثيراً ما تهرب حافية إلى أطلال المدينة ، حيث كان يخامرها حسد النساء اللواتى تراهن مارّات متبرجات فى أبهة وبهاء ، محمولات فى محفاتهن على أكتاف الأرقاء .

وفى ذات يوم نالها من الضرب ما لم تستطع معه صبراً ، فانطرحت عند بوابة المدينة ، ثائرة ، واجمة . . وبينا هى على هذه الحال ، وقفت بها امرأة عجوز ، ونظرت إليها ملياً وهى ساكتة ، ثم قالت : « يالك من زهرة حسناء أيتها الصبية الفتانة ! . ما أسعد أباك الذى أوجدك وأمك التى ولدتك ! . . »

فلبثت تاييس صامتة مطرقة ، وقد احمرت جفونها من البكاء ، فعادت العجوز تقول :

— يا زنبقتى البيضاء ! . أليست أمك سعيدة لأنها أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أوليس أبوك مغتبطاً من صميم فؤاده برؤيتك ؟

فأجابت الصبية ، وكأنها تحدث نفسها :

— أبى زقٌّ منتفخ من الصهباء ، وأمى عَلَقةٌ شرهة ! . .

فنظرت العجوز يمنة ويسرة لتستوثق من أنه ليس عليها رقيب، ثم قالت متلطفة: «أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء! أيتها الحسناء التى تشرب النور وتنهل الضياء! . تعالَىْ معى، فتكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والبسمات!: سأطعمك الشهد، ويحبك ابنى حبه لعينيه . . وهو فتى لو علمت غض الإهاب، فاتن المحيا! . . »

فذهبت معها تايس.

وكانت تلك المرأة، وتدعى «مروى»، تأخذ البنات والصبيان من بلد إلى بلد، تعلمهم الرقص، ثم تؤجرهم لسراة القوم ليرقصوا فى الولائم والحفلات.

ولما رأت أن تايس لا تلبث أن تغدو أجمل النساء، علمتها الموسيقى والغناء، وكانت تجلد ساقيها إذا لم تهب عند سماع نغمات القيثارة، أما ابنها فكان ثمرة إجهاض، لا تبدو عليه حقيقة سنه، ولا يميز الناظر إليه كنه جنسه! . . وكان ينتهر الفتاة، ويصب على رأسها جام حقده على النساء جميعاً. وكان ينافس الراقصات بتكلف رشاقتهن، فتعلمت منه تايس فن التمثيل الإيمائى، والتعبير عن العواطف بالحركة والإشارة، وامتازت بتمثيل أهواء الغرام، وقد محضها أستاذها، على كره

منه، نصحه، وكان يغار من تلميذته، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو ينخسها بإبرة فى ظهرها عند ما يتجلى له أنها خلقت لإمتاع الرجال ! . .

وجاءت « مروى » مدينة أنطاكية، فأطنبت فى مدح تلميذتها كراقصة عازفة، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين . . فرقصت تايس، ونالت الإعجاب، وأخذها السراة بعد انفضاض الولائم إلى أحراش نهر العاصى، فسامت نفسها دون أن تعرف للحب ثمناً . . . ولكن حدث ذات ليلة، بعد أن رقصت أمام أظرف شبان المدينة، أن اقترب منها ابن الوالى يتوثب فتوّة ويختال عزّة، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقُبَل:

— ليتنى التاج المنعقد على مفرقك يا تايس ! ليتنى القميص المزرور على جسمك البديع ! . ليتنى نعل قدمك الجميلة ! . . إنى أروم أن تطأى بقدميك هامتى، وأن يكون قميصك وتاجك من عناقى وقبلاتى . . فتعالَىْ أيتها البنية المليحة إلى بيتى لننسى العالم . .

فنظرت إليه، وهو يتضرع، واستبانت محاسنه . . فأثلج العرق جبينها، واستحال لونها كالعشب اخضراراً . . وترنحت، وانتشرت على عينيها غشاوة، ولكنها امتنعت عليه

بقوة مجهولة لا تقاوم، حتى ظنها القوم بلهاء ، لأنها تنبذ « لوليوس » الفتى النبيل الغنى الجميل . . .

وتغيرت تاييس ، ودهمتها الكآبة ، وعافت رؤية الضياء ، ولبثت سحابة نهارها مضطجعة فى فراشها ورأسها غارق فى الوسائد ، وجاء لوليوس يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة ، فلبثت فى حضرته خائفة كعذراء بتول ، وأصرت على رفضها . .

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها إذ شغفها حباً . . وعاشت معه عيشة هنيئة . . وجاءت مروى العجوز إلى بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية :

— ابنتى ! . ابنتى التى أخذت منى عنوة ! . . زهرتى المعطرة ، حشاشة فؤادى وفلذة كبدى ! . .

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت تلحف فى طلب المزيد من قطع الذهب ، بعث بها الفتى إلى السجن ، وحقق الحكام جرائم عديدة اتهمت بارتكابها ، فسيقت إلى الموت ، وطرحت طعاماً للوحوش الضارية !

. . . . . .

وظل سحر الحب ستة أشهر . . ثم انحلت يوماً طلاسمه . فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة ، وتساءلت : « كيف

تغيرت هكذا فى طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس حتى إنه صار فى نظرى مثل سواه من الرجال ، ولم يعد مثل نفسه ؟» .. ثم هجرته . . وخيل إليها أن الحياة مع إنسان لم تحبه قط أيسر خطباً منها مع إنسان لم تعد تحبه . . وصحبت المترفين من أبناء المسرات فى تلك الولائم التى ترقص فيها العذارى العاريات ، وتقطع فيها السرارى نهر العاصى سابحات . . واشتركت فى ملاهى المدينة البديعة الفاسقة ، وأكثرت من التردد على دور التمثيل ، وعنيت بدراسة حركاتهن ، وتوقعت أن تبذ أرقى الممثلات ، لأنها كانت تفوقهن حِسًّا وحسناً ..

ولما برزت على مسرح التمثيل تفجر بأس جمالها وفنها بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها ، وشوهد زعماء الأمبراطورية وقضاتها فى المقاصير . . وحرم الحمالون وعمال الميناء أنفسهم الخبز والنوم ليدفعوا أجر مقاعدهم . . ومدحها الشعراء .. وخطب فى تجريحها الفلاسفة .. وأشاح عنها الرهبان وهى تمر بهم فى محفتها !

تُوِّجت عتبة بيتها بالزهر ، ونضحت بالدم . . تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزناً وكيلاً لا عدًّا . . وتدفقت الكنوز التى ادخرها الكهول الأشحاء عند موطىء قدميها

كالأنهار . . لذلك طابت نفساً وقرت عيناً . . وهامت بحب نفسها، لأن الجميع هاموا بها ! . .

وبعد أن تمتعت سنوات بحب الأنطاكيين وإعجابهم، اشتاقت إلى الإسكندرية، لتعود فتظهر مكانتها للمدينة التى ضربت فى أرجائها وهى طفلة، تجر ذيل الشقاء والحرمان، وقد أضناها الجوع والمسغبة، كالجرادة الهائمة فى الصحراء . .

فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب، وغمرتها بالهبات والعطايا، وكان ظهورها على المسرح نصراً مبيناً، وسعى إليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين . . ولكنها تلقتهم بفتور وقلة مبالاة، لأنها يئست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها . .

(٢)

فى طيبـــة المقدسة

نحن فى « طيبة » المقدسـة .. وكانت الصحراء فى ذلك الزمان يسكنها النساك فى أكواخ بنوها من الأغصان والطين كبيوت الفلاحين ، تمتد على شاطىء النيل متجاورة ، متناثرة ، تجمع لأهلها بين العزلة والمؤازرة . وهنا وهناك كنائس يقصدها الرهبان فى الأعياد لإقامة الشعائر .. وقد أخذوا بأسباب التقشف والزهد ، يصومون حتى المغرب ، ثم يتبلغون بكسر من الخبز والملح ، وارتدوا وبر الإبل ، وتهجدوا ، ثم اتخذوا من الأرض فراشًا ..

وحرموا بداهة على أنفسهم الخطيئة الأصلية ، التى سببت عندهم عصيان آدم وحواء أمر ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة ، فطردا من الجنة ، وتعرضا هما وسلالتهما لعذاب الدنيا والآخرة .. وكانوا يعتقدون أن أمراض البدن تطهر

الروح ، وأن أشرف حلية هى ما يظهر على وجوههم من البشور والقروح !

وكان بعض هؤلاء النساك يحصلون معاشهم بضفر ألياف النخيل وخدمة الزراع المجاورين أثناء الحصاد بأجر معلوم.. وكان الملائكة يزورون الصوامع فى شكل سياح ، فى حين يتخذ الشياطين أشكال الأحباش أو الحيوان ، ويجولون بين النساك ليضلوهم عن سواء السبيل.. وكان الرهبان عند ما يذهبون فى الصباح ليملأوا من النبع أباريقهم يرون آثار أقدام الشياطين مطبوعة على الرمال.. وكانت « طيبة » للمتأمل ميدان قتال روحى بين النعيم والجحيم !

وكانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين أحيانًا هجومًا عنيفًا ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم بأسلحة الصوم والصلاة والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته.. وكانت تقسو عليهم أحيانًا ميولهم الجنسية فتخزهم وخزاً يمزق أحشاءهم ، فتتجاوب تحت قبة السماء ذات الكواكب صيحاتهم المزعجة كعواء الضباع الجائعة !.. عند ذلك تتحول الشياطين إلى صور فتانة فاجرة ، تحول دون معرفة حقيقة أمرهم.. فيجزع رهبان طيبة إذ يرون فى صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند

معاصريهم المترفين المتهتكين . . فيستنجدون بالصلبان التى تعلو صوامعهم ، فترتد الشياطين النجسة إلى أشكالها الحقيقية ، وتبتعد آخر الليل فى خجل وغيظ . . .

أما شيوخ الصحراء فقد امتد سلطانهم إلى الثواب والعقاب . . وتناقل الناس حتى مدينة الإسكندرية أن الأرض تنشق لتبتلع الأشرار والفجار الذين تمسهم عصىُّ هؤلاء الشيوخ الصالحين .

ومذ صعد « القديس أنطوان » إلى قمة جبل كلزان ، بعد ما أربت سنه على المائة مصطحباً أحب مريديه إليه : « مقار » و « أماتاس » ، لم يبق فى طيبة كلها راهب أبرّ وأصلح من بافنوس ، كاهن بلدة « أنصينا » ، التى قامت على أطلالها بلدة « الشيخ عبادة » المعروفة بالصعيد . . فكان أشد الرهبان قسوة على نفسه ، يقضى ثلاثة أيام بلياليها صائماً لا يذوق طعاماً ، فى عباءة من الصوف الخشن ، يجلد نفسه صباح مساء ، وطالما انبطح على الأرض ممرغاً جبهته فى التراب ! . .

أما تلاميذه الأربعة والعشرون ، فبعد أن بنوا أكواخهم على مقربة من كوخه ، اقتدوا به فى تقشفه وورعه . . وكان منهم قاطع الطريق الذى اهتدى ، والواعظ فلاڤيان الكاتب

والخطيب، ومنهم طاهى ملكة الحبشة الذى صار بعد أن هداه معلمه يذرف الدموع بلا انقطاع .. بيد أن أعجب تلاميذ بافنوس كان غلاماً صغيراً يدعى «بولس»، ولقب بالساذج لسلامة نيته التى لا حد لها، بحيث تضحك الناس منه، غير أن الله شرفه بأن خصه بالرؤى الصادقة.

وكان بافنوس على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة، فلم تكن الشياطين التى تهاجم رهبان طيبة تلك المهاجمة العنيفة لتجرؤ على الدنو منه .. واعتاد سبعة من جراء بنات آوى، أن تقعى أمام صومعته فى الليل، فى ضوء القمر، منصتة فى هدوء وسكون .. وقيل بل تلك سبعة من الجن كان قد استبقاها ببابه لا تتعدّى عتبته بقوة قداسته! ..

. . . . . .

ولد بافنوس فى مدينة الإسكندرية من أبوين نبيلين، وتأدب بأدب الدنيا، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء! .. فقد غمروه بعواطفهم، فاسترسل فى الخلاعة، حتى إنه لا يكاد يذكر ذلك العهد من صباه الباكر إلا بالحياء والنفور! ودرج على سنن الحياة فى عصره حتى بلغ العشرين، ثم تهذب على يدى الكاهن «ماكرين»، فخلق خلقاً آخر، وعاد رجلاً جديداً ..

وفى ذات يوم سمع واعظاً فى كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها : « إذا شئت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء ثمنه » . . فباع من فوره متاعه وأنفق ثمنه فى وجوه البر والإحسان . وانخرط فى سلك الرهبنة . .

وحدث يوماً ، وهو فى صومعته الصحراوية ، أن فكر فى ماضى حياته ، عندما كان بعيداً عن الله ، واستعرض خطاياه واحدة بعد واحدة ليدرك شناعتها . . فتذكر أنه رأى منذ بضع سنين فى ملعب الإسكندرية ممثلة ساحرة الجمال تدعى « تايس » ، لم تكن تخرج من رقص يثير فى النفس أقوى النزعات ويعرض الرائى لأشنع الرغبات . . وكان يختلف إليها الشبان المغرمون والشيوخ الأغنياء المدلهون ، يعلقون أكاليل الزهر ببابها ، فترحب بهم . . وأضاعت بضياع نفسها نفوسهم ! . .

وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها ، فقد أضرمت فيه نار الصبابة ، فاقترب ذات مرة من بيتها ، لكنه وقف بالباب ، وصده الجبن ، وعقل قدميه التهيب الفطرى فى الشباب (كان فى الخامسة عشرة من عمره !) ، وكان تحرجه كذلك خشية أن يزجر لخلو ذات يده ، إذ كان أبواه يضنان عليه . . ولكن لقد

كان من رحمة الله به أن قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير . . وإن كان بافنوس لم يحمده تعالى يومئذ لأنه كان لا يفرق بين النافع والضار ، وكانت نزواته طائشة . .

والآن وقد ركع بافنوس فى صومعته يصلى ، فقد تراءت له صورة تايس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد — كما كانت حين نصبت له حبائل الغواية — راقدة فوق مضطجع من حجر يمان ، ناكسة الرأس ، مغرورقة العينين المملوءتين نوراً ، باسمة ، ترتجف شفتاها ، وثدياها كزهرتين ، وزنداها كجدولين . . فضرب بافنوس صدره قائلا : «أدعوك ربى لتشهد على شعورى بشناعة خطيئتى ! » . . ثم تغيرت ملامح الصورة شيئاً فشيئاً ، إذ زاد ابتسام ثغرها ، فافترّ عن ألم خفى ، وامتلأت عيناها النجلاوان دموعاً ونوراً ، وجعل صدرها يعلو ويهبط بالتنهدات ، وهى تزفر زفيراً يشبه أول هبوب العاصفة . . فاضطرب بافنوس وخرّ ساجداً ضارعاً إلى الله :

— رباه انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذى يؤدى إلى الاشتهاء ! . . رباه ضع حداً لخطايا هذه المرأة . . فإنى ليحزننى ويبكينى أن أتصور الزبانية يعذبونها فى نار جهنم كلما خبت زادوها سعيرا .

وإنه لكذلك إذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ، فأدهشه ذلك كثيراً ، لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح . . ولاح على الثعلب أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن ، فحرك ذنبه كالكلب ، فرسم بافنوس علامة الصليب ، فاختفى الحيوان . . وهنالك علم بافنوس أن الشيطان قد استباح صومعته ودخلها لأول مرة . .

. . . . . .

فبات مسهداً أرقاً لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا . . ظهرت له تابيس فيها مرة أخرى . . لم تبد على وجهها أية علامة للأهواء الضالة أو الملاذ الأثيمة ، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المهلهلة ، بل كانت فى بُردة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها ، بحيث لم يستطع الراهب أن يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة . . فبكى لهذا المشهد . . وجرى فى ظنه أن هذا الحلم وحى من عند الله . . فطلق التردد ، ونهض لساعته وتناول عصاً معقدة ، وغادر صومعته ، ودعا الشماس فلاڤيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين . . وسار والنيل محاذياً الشاطىء الليبى قاصداً المدينة التى أسسها الإسكندر المقدونى . . وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهيناً بالتعب

والجوع والعطش .. وكانت الشمس تحت الأفق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران .. واستعطى الخبز لوجه الله عند أبواب الأكواخ المنفردة ، متلقياً الانتهار والزجر بابتهاج ، غير خائف من اللصوص أو الوحوش الضارية ، متنكباً القرى والأمصار التى فى طريقه خشية أن يرى الصبايا فى جلابيبهن الزرقاء يملأن جرارهن مبتسمات .. يترنحن من نشوة الحسن ، والاستعداد للحب .. فما أخطر هذا على قلب الناسك المتبتل الذى نذر نفسه لله ! .. وانطلق يضرب فى الطرق الموحشة .. وكلما أمسى فداعب النسيم الشجر والنخيل ، ارتجف فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات ! .. ووصل بعد عدة أيام إلى الإسكندرية التى لقبها الإغريق بالجميلة والذهبية .. وكان الفجر قد تبلج منذ ساعة ، فلاحت له المدينة الرحبة العظيمة ، من ربوة ، تتلألأ قبابها فى ضباب الصباح الوردى .. فوقف وضم ذراعيه إلى صدره ، ولعن المدينة التى نشأ فى أحضانها ، وشب فى ربوعها ، وأنكرها ، وأعلنها بأن قلبه قد تحول عنها .. لأنها مدينة فاجرة داعرة ! .. وهو يمقتها لغناها ، وعلمها ، وجمالها ، ومسراتها ! ..

ومضى حتى دخل المدينة ، من « باب الشمس » الحجرى

الشامخ الذى على تساميه وخيلائه يتربع فى ظله الفقراء البائسون يستجدون المارة وهم يتأوهون ، أو يبيعونهم التين والليمون . . . وقبّلت عجوز فقيرة مسوح الراهب ، ورجمته شرذمة من الأطفال بالحجارة وهم يصيحون : « يا للراهب الخبيث : إنه أسود من القرد الأسحم ! وأقبح من التيس الملتحى ! . . لماذا لم ينصبوه لعيناً لتخويف العصافير وزجر الطير ! . لكن لا ! . إنه يجلب البرد على زهر اللوز ! . إنه يَجلب النحس والشؤم ! . . اصلبوا الراهب ! . اصلبوه . ! » . . وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم . . فبارکهم بافنوس وغفر لهم ! . . واجتاز المدينة سريع الخطى ، وتذكر بعد غَيبة عشر سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر يذكره بمعصية ، فطفق يضرب حجارة الطريق بقدميه حتى تمزقتا وانبثقت منهما الدماء . . ثم سار عن يمين أروقة معبد السرابيس الفخمة ، فى طريق محفوف بالقصور المنيفة التى كانت كأنها تنطف عطراً . . وهناك الأشجار الشامخة برؤوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة . . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من النحاس فى أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين أغصان الشجر . . ولم يك ثمة صوت يكدر عنده سكون هذه الوحدة الرائقة سوى

أنغام ناى بعيدة . . فوقف الراهب أمام بيت صغير بديع التقسيم ، قائم على أعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان بتماثيل نصفية من البرنز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافنوس منهم أفلاطون وسقراط وأرسطو وأبيقور وزينون ...

والتمس رؤية صاحب البيت « نسياس » ، فألفاه خارجاً من الحمام ، والجوارى الجميلات يدلكن جسمه ، وكان رجلاً رشيقاً بشوشاً ، يجمع محياه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهكم . . فلما أبصر الراهب تقدم إليه مفتوح الذراعين :

— هذا أنت يا بافنوس ! . . رفيق فى طلب العلم ، صديق ، أخى ؟ ! لقد عرفتك رغم قدومك فى صورة أشبه بالوحوش منها بالبشر ! أهلا بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحباً ، بعد فراق عشر سنين ! . . لقد غادرت الصحراء وزهدت فى خرافات النسك ، والآن تعود إلى الحياة سيرتك الأولى . . حقاً إن اليوم ليوم ميمون ! . .

وأشار إلى جاريتيه لتضمخا بالطيب يدى ضيفه العزيز وقدميه ولحيته . . فابتسمتا ، وأقبلتا عليه بإبريق وقنانى ومرآة معدنية . . لكن بافنوس وقفهما بإشارة الآمر ، ثم غض من بصره لأنهما كانتا عاريتين ! . . وقال : « أعرنى حلة معطرة ،

كتلك التى تلبسها ، ومُنَّ علىَّ بنعال مذهبة ، وقارورة زيت أطيب به لحيتى وشعرى ، وزد على هذا سفطاً فيه ألف درهم .. هذا ما أتيتك فى طلبه يا نسياس حباً فى الله وإكراماً لعهد صداقتنا القديم » .. فأمر له بما طلب .. لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على سر طلبه ، فقال :

— أتعرف تاييس الممثلة ؟ ..

— يا لها من امرأة جميلة فتانة ! .. أعزها وأمجد جمالها وأقول الشعر فيها .. فهل أتيت يا بافنوس الصالح من أعماق طيبة فى طلب تاييس ؟ ..

— اعلم يا نسياس أنى أريد إنقاذها بمعونة الله من حضيض الملذات الأرضية السافلة .. لتكون عروساً للمسيح .. وإذا لم يفارقنى الروح القدس فستغادر تاييس هذه المدينة اليوم لتدخل الدير .

— حذار أن تغضب « الزُهرة » فهى إلهة قادرة .. إن أنت حرمتها أجمل عبادها ، أوغرت صدرها عليك ! .. حذار ، فانتقامها مروع ! ..

وبعد ساعة من الزمن طرق بافنوس باب تاييس .. وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنات وارفة الظلال ، فيها صخور

صناعية ، ينساب فى وسطها غدير مزدان بأشجار الحور ، فى حى راكوتيس ، بقرب قبر الإسكندر . .

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحلى ، وسألته عما يريد .. فأجابها : « أروم رؤية تاييس ، علم الله أننى ما أتيت إلى هنا إلا لرؤيتها » . . . ورأت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً ويتكلم بأبهة السيادة ، فسمحت له بالدخول ، وقالت :

— تجد تاييس فى كهف العذارى

(٣)

فى كهف العذارى

عنيت تايس بحدائق دارها ، فغرست فيها الأشجار الغالية التى جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرويها جدول متفجر ، وسط صف من الأعمدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر ، تنعكس فى بحيرة ترتسم على مرآتها المجلوّة التماثيل التى حولها . . وفى وسط الحديقة يقوم « كهف العذارى » الذى يعزى اسمه إلى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملوّن بمهارة وتفنن ، واقفات عند مدخله . . وهؤلاء النسوة كن قد نضون ثيابهن ليغتسلن ، والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة . وكان الضوء لا ينفذ إلى هذا الخدر إلا من خلال طبقات المياه الرائقة التى تخففه وتلونه بألوان قزحية . . وعلى جانب الحيطان علقت ، كما تعلق فى المغاور المقدسة ، التيجان وأكاليل الزهر

والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تايس وذاع صيته . .
وفي وسط الكهف نُصِب فوق عميِّد قصير تمثال صغير لإلٰه الحب « إيروس » ، مصنوع من العاج صنعاً قديماً دقيقاً عجيباً ، وكان هدية من نسياس . . وثمَّ عنزة من المرمر الأسود واقعة في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقيتين ، وقد التف حول ضرعها ستة جداء من المرمر الأبيض . . وقد همّت العنزة بأظلافها ورفعت رأسها الفِلطاح ، كأنما كلَّت وفرغ صبرها من رضاع صغارها . . وكأنها تود أن لو يتاح لها الجرى وتسلق الصخور . . وكانت الأرض مفروشة ببساط بيزنطي ، ووسائد مطرزة بأيدى الصُفر من أهل قطاى ، وجلود أسود من صحراء ليبيا ، وكان البخور يتصاعد من المباخر الذهبية . . وهنا وهناك أصص فيها نبات مزهر ، ووراء هذا كله ، في الظل الأرجواني ، تلمع أظافر من ذهب لسلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها ، تستخدم كسرير للممثلة . . فكانت تايس ، في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خرير الماء وشذا الزهور ، وعبير العطور ، تضطجع برخاوة واستسلام ، في انتظار ساعة العشاء ، تتحدث إلى أصحابها ، أو تفكر وحدها في شؤون المسرح ، أو في كرّ الغداة ومرّ العشي . .

فى ذلك اليوم بالذات كانت ، بعد التمثيل ، جالسة فى « كهف العذارى » تنظر فى مرآتها العلامات الأولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها . . فهالها التفكير فى أنه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والغضون والتجعدات . . وإذا صوت لا أثر للرحمة فيه يُهيب بها : « ستبلغين يا تايس من الكبر عتياً ! ستشيخين يا تايس ويدركك الهرم ! » . . فجمد العرق البارد على جبينها ، وطالعت وجهها ثانية فى المرآة برقة بالغة ، فألفت نفسها لا تزال جميلة فتانة ، جديرة بأن تُعشق وتُشتهى ، فابتسمت لصورتها وتمتمت : « ليس فى الإسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامى اللدن ، ولا من تماثلنى فى رشاقة الحركات وبهاء الأذرع . . والأذرع ، أيا مرآتى ، هى سلاسل الحب ! » . .

وعندئذ رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ، مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً أمامها . . فأفلتت مرآتها من يدها وصرخت مذعورة . .

ووقف بافنوس جامداً ، ولما رأى مبلغ جمالها ، قدم من أعماق قلبه هذه الضراعة :

— ربى . . إن هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ،

على عبادك ! . . ربى ، لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً فى غوايتى ، بل سبباً لهدايتى ! . .

ثم أرغم نفسه على الكلام ، وقال :

— تاييس ! . . إننى من سكان أرض سحيقة نائية ، وقد قادنى إليك صيتُ جمالك . . قيل إنك أبرع الممثلات وأقدر الراقصات . . وكأن قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الأولين ، تعيد إلى الذهن ذكرى « رودبيس » القديمة التى يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلب . ولعمرى إنى لارى الخُبر يفوق الخَبر ! إنك أعلم وأجمل ألف مرة مما ذاع عن علمك وجمالك . . والآن إذ أراك أقول لنفسى : « يستحيل على المرء الاقتراب منها إلا ويترنح ترنح السكارى » . .

فنظرت تاييس بغير استياء إلى هذا المخلوق الغريب الذى أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشى ، ونظراته الكئيبة النارية ، وودت معرفة شأن هذا الرجل الذى يختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم أجمعين . . وأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لى أيها الأجنبى أنك سريع الإعجاب بالناس . . فحذار أن تشغفك نظراتى ، فتبلى جسدك ، وتوهن العظم منك ! . حذار من حبى ! . .

— إنى أحبك يا تايس ! . . أحبك أكثر من حياتى ، وأحبك أكثر من نفسى . . لأجلك غادرت صحرائى ، ونطق لسانى بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت . . أجل ! إنى أحبك ، لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات أبدانهم ، فيتسابقون إليك كالذئاب الخاطفة أو الثيران الهائجة . . فيلتهم حبهم روحك ، ويضنى جسدك ، أيتها المرأة . . أما أنا فأحبك بالروح ، والحق ، فى الله ، وإلى الأبد . . والنعيم الذى آتيك به مقيم لا يزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف . . وإذا قدر للسعداء فى هذه الدنيا أن يروا لمحة واحدة من مثله ، فإنهم يموتون للحال من شدة الذهول ! . .

فضحكت تايس بتهكم وارتياب ، وقالت بخبث :

— علىَّ يا صاحبى بهذا الحب العجيب ! . . عجِّل ! . . فإنى أعد إسهابك فى القول مهانة لمحاسنى . . إنك تقول بحب مجهول . . ليت شعرى ، لقد مضى دهر طويل على تبادل القُبل بين الرجال والنساء ، بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب مجهولة لم يمط عنها اللثام ! . . . والعاشقون يعرفون أكثر من السحرة فى هذا الباب ! . .

غير أنها مع ذلك اعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا

تظاهرت بالخوف منه ، وخطت إلى الوراء مرتدة إلى آخر كهف العذارى ، وجلست فوق حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان فى رفق ولين ، ورفعت قميصها بلباقة ، ثم لبثت ساكتة ، ساكنة ، لا تبدى حراكاً . . تنتظر . . بجفون منكسرة . . وقد ألقت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً . . وكان مظهرها ينم عن حياء وخفر ، فشابهت بنتاً تحلم وهى متكئة عند حافة غدير . . فنظر إليها بافنوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبتاه المرتجفتان تقويان على حمله ، وجف لسانه فى فمه ، واعترى دماغه دوى هائل ، وأغشى على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن أن يد يسوع قد ألقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن لهذا العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— أفتظنين ، إذا وهبت نفسك لى ، أننا نخفى على الله ؟ !

فهزت رأسها قائلة :

— الله ؟ ! ومن ذا الذى يكرهه دائماً على مراقبة كهف العذارى ؟ ! فلينصرف عنا إذا كنا نسوءه . . ولكن كيف نسوءه وقد خلقنا نفعل ونتأثر بحسب الطبيعة التى أوجدها فينا وكما صوّرنا وبرأنا ؟ ! ثم من تكون أنت حتى تخاطبنى باسمه ؟ !

وعند هذا السؤال كشف الراهب قليلاً حليته المستعارة ، فظهر ثوبه الوبرى ، وقال :

— أنا بافنوس ، كاهن « أنصينا » الأكبر ، جئت من الصحراء المقدسة فى طلبك ، إذ ظهر لى رسمك فى مقدسى الرملى ، فعرفت أن نفسك مفعمة بالفساد ، وأن كانت فيك المنون ، وهأنذا أمامك أيتها المرأة وكأننى أمام جدث ، وإننى أصيح بك : « انهضى يا تاييس » ! .

فلما سمعت تاييس اسم بافنوس امتقع لونهـا وزحفت متشابكة اليدين ، إلى قدمى القديس وهى تنوح :

— لا تؤذنى ! ما الذى جاء بك ؟ ماذا تبغى منى ؟ . . أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمقتون النساء اللواتى خلقن على شاكلتى متعة للرجال . . هل تريد إيذائى ؟ ! إننى مسيرة لا مخيرة فيما أنا عليه . . وقد خلقت لما أنا فيه ، وولدت لأفتن الرجال . . وأنت نفسك قلت الآن إنك أحببتنى ، فلا تستخدم علمك فى البطش بى ، ولا تفه بكلمات السحر التى تتلف جمالى ، أو تبدلنى تمثالاً من الملح ! . . فلشد ما أخاف الموت ! . .

— هدئى روعك يا بنية . . وإذا كانت عيناك اللتان لم تتعودا النظر إلا إلى نقائص البدن وعوراته ، تستطيعان أن

تنظرا إلى الأشياء بحقيقتها الروحانية، فلأظهرنَّ إذن لك كغصن منتزع من تلك العليقة المشتعلة التى أراها الله لنبيه موسى الكليم فى البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذى يشعلنا دون أن يبلينا ، فلا يترك جمراً ورماداً ، إنما بلسماً وعطراً يضمخان كل ما يتخللانه إلى آخر الدهور . . .

— إننى أصدِّقك أيها الراهب . . ولم يكن اسمك عنى خافياً ، فقد خبرونى أنك على حداثة سنك تضارع فى الفضل أكبر الزاهدين . . فهل تستطيع ، إذا كنت تحبنى ، أيها الراهب ، أن تحول بينى وبين الموت ؟ ! وأن تحقق لى ما عجز عنه كهنة إزيس وهرمس ويونو والسحرة الكلدانيون والعرافون البابليون جميعاً ؟ !

— أيتها المرأة ، إن من يرغب فى الحياة يحى ، فأعرضى عن الملذات الدنيئة التى تهلكين بها أبداً ! انتزعى جسدك الذى فطره الله ونفخ فيه من روحه . . وأنقذيه من أيدى الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه إحراقاً . . . أيتها النفس القلقة ، المتلهفة تعالَىْ تنالى ما تشتهين !

— أصحيح أيها الراهب أننى إذا نبذت المسرات وتبتُّ ، أولد ثانية فى السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

— تايس ، إننى أحمل إليك الحياة الخالدة ، فثقى بى ، لأن ما أبشرك به هو الحق . . .

— ومن يضمن لى أنه الحق ؟

— داود ، والأنبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات التى سوف تشهدين . . .

— أرانى أميل إلى تصديقك أيها الراهب ، لأنى أسلم بأن نصيبى فى الدنيا كان أعظم من نصيب ملكة ، ومع ذلك لم أجد فى هذه الدنيا هناء . . وكل النساء يحسدننى مع أننى طالما حسدت العجوز الدرداء التى كانت - وأنا صغيرة - تبيعنى أقراص الشهد أمام باب القمر . . وقد خطر لى غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ، وأن فى هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . . فيا أيها الراهب لقد هجتَ أمواج حياتى ، وطفوت إلى السطح بتلك التى كانت فى القاع . . واهاً لأيام طفولتى الماضية ! . واهاً لأبى الروحى أحمس القديس الطيب الذكر . . لماذا لم أمت فى ذئاره الأبيض عند ما كان يحملنى فى مطلع الفجر نديَّةً بماء المعمودية ؟ !

فوثب بافنوس نحوها صائحاً :

— أنت عُمِّدت ؟ ! يا للحكمة الربانية ! . . ويا للعناية

الإلهية ! . . الآن عرفت القوة التى اجتذبتنى نحوك ، وجعلتك هكذا عزيزة علىَّ ، جميلة فى عينىَّ !

ولثم الراهب جبين الغانية . . . ثم سكت ، وترك حبل القول لله . . ولم يكن يُسمع فى كهف العذارى سوى زفرات تايس ممزوجة بخرير المياه الجارية . . فى حين دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعطور وتيجان الزهور . . فقالت تايس ، وهى تحاول أن تبتسم :

— إنى مدعوة إلى العشاء الليلة مع بعض الأصدقاء ، فتنح قليلاً يا أبى حتى ألبس . .

— إنى لن أتركك تذهبين وحدك ! . . سأصحبك إلى هذه المأدبة ، وأبقى بجانبك ، ملازماً الصمت والسكون .

فضحكت تايس ، وصاحت ، والجاريتان تلبسانها حليها :

— تُرى . . ماذا عساهم قائلون عندما يرون لى عاشقاً من رهبان طيبة ؟ !

(٤)

وداع الحب

طلع الصبح بلون الورد على المدينة ، فأشرفت عليها ، من بعيد ، قبة قبر الإسكندر المتلألئة . . وكان على جانبى الطريق المقفر أكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . . وكان الهواء مرطباً بنسمات البحر العليل . . فمزق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزاً ، ونهر تايبس ، مشيراً إلى ما رأوه فى تلك المأدبة الفاجرة من السكارى المصروعين ، على مقربة من المتعانقين ، فكان الشراب المسكوب يجرى ممتزجاً بالدم المسفوك . . فها هى ذى قد رأت الخطيئة ، وعرفت أنها مرذولة ، وساءت سبيلا . .

أما تايبس التى أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة الحافلة ، وشعرت بتفاهة الرجال وبهيميتهم ، وخبث النساء وغيرتهن ، وثقل وطأة الأيام . . فقد قالت متنهدة :

— نفسى متعبة حتى الموت يا أبتاه ، فأين الراحة ؟ أحس بجبينى ملتهباً ، ورأسى خاوياً ، وذراعىّ مرتخيتين ، حتى إننى لا أملك من القوة ما يكفينى لإمساك السعادة لو أنها وُضعت فى راحتىّ .. ماذا ينبغى أن أعمل ؟

وكانا قد اقتربا من بيت تاييس . . وشهدا فوق الجدران رؤوس أشجار الجميز والجلنار المحيطة بكهف العذارى ، تهتز تحت طلّ نسمات الصباح . . فأجاب الراهب :

— إن على مسيرة اثنتى عشرة ساعة من الإسكندرية ديراً للراهبات ، تعاليمه آيات بينات جديرة بأن تكتب شعراً غنائياً وتوقع على ألحان الدف والمزمار . . سآخذك اليوم إليه يا تاييس . . وسنولى الأدبار من هنا لا نلوى على شىء . . على شريطة ألاّ ندع وراءنا أدوات جرائمك الماضية وشهودها وشركاءها . . تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح الملونة التى تعلن عن فجورك ؟ . . أتريدين من هذا المتاع المسكون بالشياطين أن يتبعك إلى البادية ؟ !

فارتضت تاييس هذه النصيحة . . ودعت خدمها وجواريها وأمرتهم بأن يطيعوا ما يأمر به بافنوس . . فطلب إليهم أن يأتوا بخشب وسط الرحبة ، وأن يوقدوا ناراً ، وأن يلقوا

فيها ما دار عليه البيت الأنيق وكهف العذارى . .

فدهشوا ، ولم يتحركوا ، حتى نهرتهم تاييس وأكدت أن الأمر جد ، وما هو بالهزل .

فركع الهنود منهم ينفخون فى الجذوة المتقدة ، وقذف الزنوج إلى النار بصناديق العاج والآبنوس والأرز . فسقطت فيها التيجان المرصعة ، وأكاليل الزهر ، وقلائد اللؤلؤ .. واندلعت ألسنة النيران ، واشتد لهيبها ، وتكاثف دخانها ، وهى تلتهم وقودها الثمين . . فازداد العبيد حماسة وحمية ، ونشطوا لجر البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج الموشى ، والأرائك ، والأسرَّة ذات العمد الذهبية .

وحينئذٍ ظهرت تاييس ، حافيـة القدمين ، مرسلة الشعر على الـكتفين ، ترتدى قميصاً خشناً لا هندام له ، ولعله صار بلمسه بدنها مشرباً بنعمة الله . . وأقبل وراءها بستانى يحمل تمثال إله الحب « إيروس » مصنوعاً من العاج . . فأشارت تاييس إلى الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافنوس ، وأرته التمثال الصغير ، وسألته :

— أمحتم يا أبى إلقاء هذا أيضاً فى النار ؟ . . إنه من الآثار القديمة العجيبة ، وهو يساوى مائة مرة وزنه ذهباً ، ولن يعوض

إن فقد .. لأنه لا يوجد فى العالم فنان قادر على صنع مثله . ولا تنس يا أبت أن هذا الطفل الصغير هو رمز « الحب » . . ولا يجوز أن يعامل الحب بقسوة . . صدقنى يا أبى أن الحب فضيلة ، وإذا كنت أنا قد أذنبتُ ، فليس منه ، وإنما إليه . . لن أندم أبداً على ما جعلنى الحب أعمله ، وإنى لآسفة جد الأسف على ما اقترفته رغماً منه . . أما تراه يأبى على النساء أن يهبن أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه ، ولا يتشفعون برسمه ؟!

لقد أهداه إلىَّ « نسياس » يوماً وهو يحبنى . قائلا : « سوف يحدثك عنى ! » . . لكن إله الحب الماكر حدثنى عن شاب كنت قد عرفته فى أنطاكية ، ولم يذكر لى نسياس . . أبق على هذا « الإيروس » ، وضعه يا أبى فى معبد ، فيتوجه الذين يرونه إلى الله بقلوبهم ، لأن « الحب » طبعاً يعرف كيف يسمو بتلك القلوب . . . فاختطفه بافنوس ورمى به إلى اللهب صارخاً :

— يكفى أن يكون نسياس قد لمسه ليفيض بكل السموم ! .

ثم أمسك بملء راحتيه الثياب المتألقة والأردية الأرجوانية والنعال الذهبية والأمشاط والمرايا والتحف والطنابير والقيثارات ورمى بها فى الأتون المتأجج . . فى حين سكر العبيد بنشوة التدمير ، فرقصوا وهللوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد .

واستيقظ الجيران ، وخرجوا فى مباذلهم مذعورين ، وأخذ الجمهور الفضولى يزداد بلا انقطاع ، وعرف أن كاهن أنصينا قد أغرى تايس بإحراق متاعها قبل أن تعتزل الدنيا فى دير . . فجزع التجار لما سيصيبهم من الخسار والبوار ، وتساءلوا : أين إذن قضاة الإسكندرية ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ . . ورأى الشبان أنهم ، إذا هجرت تايس المسرح ، يفقدون أمتع المشاهد ، وقد أحبوا فيها من أحبوا من النساء . . وما من قبلة واحدة تبودلت مع امرأة لم يكن لتايس فيها أثر ! . . وثارت ثائرة الشحاذين والمستعطين من العميان والمقعدين ، وتساءلوا : ما مصيرهم ؟ . . وقد كان فتات مائدتها يشبع كل يوم مائتين من المساكين ، واعتاد عشاقها عند ما يغادرونها وقد طابت نفوسهم أن يرموهم بملء أيديهم فضة ! . .

وأمسكوا بالراهب جميعاً يريدون إلقاءه فى المحرقة وأخذ تايس منه ، وهو يصرخ فيهم ضاماً إياها إلى صدره . . وشعرت تايس وقد ضغطها عناق بافنوس وخدشت مسوحه جلدها الغض ، بالرعب . . وإذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس متوج الجبين بالكرفس ، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمع الهائج المائج وصاح :

— قفوا ! كفّوا ! . . فهذا الراهب أخى ! . .

وكان الرجل نسياس . . لكنه كان فيلسوفاً لا يعرف كيف يسيطر على الجماهير ويؤثر فى نفوسهم ويمتلك مشاعرهم ، فأعاروه أذناً صماء ، وسقط وابل من الحصى والمحار على رأس الراهب . . فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له خطرت له حيلة أرشده إليها فجأة احتقاره للبشر ، فأخرج كيس نقوده ، وكان ممتلئاً بالذهب والفضة ، وبدأ يرمى الدنانير والدراهم . . فتهافت عليها القوم متسابقين ، ولم يبق ثمة شىء يرى فى الساحة سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض كأمواج البحر الزاخر ، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان . . وغدا بافنوس نسياً منسياً ! . . فجرى إليه نسياس وغطاه بمعطفه وجره مع تايس فى الأزقة حيث باتا بمأمن من المطاردة . . وودعهما نسياس قائلا : ليتك يا أخى تصون إلى نهاية أجلك كنوز إيمانك ومقتك وحبك ! . . وأنت يا تايس وداعاً ! . . عبثاً تنسيننى . . وأنا على ذكراك جد حريص ! . .

. . . . . .

وأودع الكاهن تايس الدير ، وأغلق عليها بيده صومعتها ، واقترب من النافذة حيث كانت الغانية الساحرة واقفة وادعة

راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثا ، وصاح :

— ما أجمل التى تسير على صراط مستقيم ! . . ما أبدع قدميها وما أبهى محياها ! .

ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهوينا مبتعداً ، وقفل راجعاً إلى الصحراء المقدسة . .

(٥)

هداها . . . وضـــلّ

كانت الأنباء تذاع فى الصحراء بسرعة ريح السموم . . لذلك خرج تلاميذ بافنوس لاستقباله بمظاهرات الفرح ، لأنهم عرفوا ما تمّ على يديه بمدينة الإسكندرية . ولما وصلوا إلى صومعـة الرئيس تمنوا عليه بعض الزيت احتفالاً بعودته ، وأن يباركهم . . أما بولس العبيط فقد لبث وحـده واقفاً يتساءل : « من هو هذا الرجل ؟ » ، ولم يعرف بافنوس . .

ومع ذلك عند ما خلا كاهن أنصينا بنفسه فى صومعته أحس نفوراً من كل ما حوله : السقف المصنوع من الغاب ، والخوان ، والفراش ، والـكتب المقدسة ، وأوراق البردى . . كلها لاحت له كأنها آثار رجل ميت . . فأدرك أن شيئاً من هذه لم يتغير ، ولـكنه هو الذى تغير وصار رجلاً آخر . .

وضاقت به صومعته ، مع أنه كان يراها ، بعين الإيمان ،

وكأنها لا آخر لها . . فبدأ يصلى ملصقاً جبهته بالرغام . . وقضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سِنة . . ورأى تايس بجلاء أظهر مما رآها فى « كهف العذارى » ، فزكى نفسه بقوله : « إن ما فعلته إنما فعلته لمجد الله » . . ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ، فتنهد : « لمَ أنت حزينة يانفسى ، ولماذا أنت تقلقينى ؟ » . . وبقيت نفسه مضطربة منزعجة ، ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال من الكآبة التى تعد نذيراً للناسك بمحن هائلة وشر مستطير . . لم تفارقه صورة تايس ليلاً ولا نهاراً ، ولم يبعدها عنه ، لأنه كان لا يزال يظن أنها آتية من عند الله ، وأنها صورة قديسة . . .

لكنها فى ذات صباح تراءت له فى حلم ، وكان شعرها متوَّجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة فى حلاوتها ، حتى إنه صرخ من شدة الخوف . . فاستيقظ وقد بلَّله عرق بارد ، وكانت عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، فشعر بأنفاس رطبة دافئة تهب على وجهه ، أنفاس ابن آوى صغير ، وضع مخلبيه عند رأسه ، وأخذ يلهث لهاثه النتن فى وجهه ، ويضحك من أقصى بلعومه . . فشُدِهَ بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وشعر كأنما انهار تحت قدميه صرح شامخ . . .

أجل ! . . فى الواقع أنه سقط من ذروة إيمانه المتقوِّض .

وصحت عزيمة بافنوس بعد ذلك على أن يكف عن التفكير فى تاييس بتاتاً ، إذ تجاذبته الشكوك ، ولم يتح له الله جلّت مقاصده الهداية . . لكن تصميمه ظل عقيماً . . فالغائبة عنه ظلت حاضرة معه . . وكأنها تنظر إليه وهو يقرأ ، ويفكر ، ويصلى ، ويتأمل . . وكان اقترابها الصورى يسبقه صوت كحفيف ثوب امرأة أثناء مسيرها . . ثم جاءته بأشكال مختلفة . . تارةً مفكرة وقد توج جبينها بآخر تيجانها التى أحرقت ، ومرتدية ، كما كانت فى مأدبة الإسكندرية ، ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة وإستبرق . . وطوراً خليعة فى سحابة من نقبها الشفافة ، مستحمة فى ظلال « كهف العذارى » . . وحيناً متألقة فى أطمار الفرح السماوى . . وحيناً آخر مفجوعة تدور عيناها فى مفازع الموت ، وقد أبانت عن صدرها العارى المخضب بدم قلبها الكليم . . فكان شقاؤه بالغاً أشده ، ولكنه لم يقنط من رحمة الله ، وتضرع إلى يسوع : « يا مخلصى خلصنى ! . . لا تبح للشبح أن يقضى ما عجز الجسد عن فعله . . أما وقد انتصرتُ على الجثمان ، فلا تدع الخيال يصرعنى ! . . » . .

وصارت لياليه حلماً واحداً طويلاً ، ولم تعد أيامه تختلف عن لياليه . .

واستيقظ مرة وهو يصعّد الزفرات الحرّى ، لأن تايس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء من أثر مشيها حافية على الرمال فى طريقها إلى الدير . . فلما اغرورقت عيناه بالدموع تأثراً وإشفاقاً عليها ، اندست فى فراشه . . فلم يبق عنده أدنى شك فى أن صورة تايس كانت صورة إثم ودعارة . . فثار قلبه تقززاً وفاض اشمئزازاً . . وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً ، وخبأ وجهه فى يديه كى لا يرى نور النهار . . وخيم السكون على الصومعة . . وأخيراً غادره الشبح . . وترك له تذكر الحلم الفاضح ، ففكر هالعاً مرتاعاً : « لماذا لم أدفعها عنى ؟ . . لماذا لم أنتزع نفسى من ذراعيها الباردتين ، وركبتيها الملتهبتين ؟ . . . »

ولم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه . . وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها فى كل آن . . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التى كانت ملازمة بابه ، لم تخط قط عتبته ، قد دخلت على التعاقب ، وكمنت تحت الفراش . . وعند صلاة

المغرب، أقبل الثامن، وكانت رائحته خبيثة لا تطاق.. وفى اليوم التالى انضم التاسع إليها ... وما لبثت أن صارت ثلاثين، ثم ستين، ثم ثمانين .. وكانت كلما تكاثرت تصاغرت وتضاءلت .. ولما لم تزد على حجم الفأر، كانت قد غطت رأس الأرض والفراش والمقعد .. ووثب أحدها على الرف الصغير عند المضجع، ووضع مخلبيه الأماميين فوق جمجمة المومياء التى اتخذها بافنوس عظة وتذكرة .. ثم نظر إلى الراهب بعينين ناريتين.

وفى كل يوم كانت تجىء بنات آوى جديدة يزحم بعضها بعضاً .. حتى صارت حشداً غريباً كأنه حبات رمل سفته ريح عاصف، فإذا هو عشرات الألوف من بنات آوى ...

وفى تلك الليلة رأى بافنوس، فى حلم، عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه بشرى، وسمع صوتاً يقول: « اصعد هذا العمود »!..

فاقتنع بأن الحلم أتاه من السماء، فودع تلاميذه، وأوصاهم بأخيهم بولس العبيط، وسار نهارًا وليلاً، حتى وصل إلى خرائب ذلك المعبد الذى بناه الوثنيون قديماً، وبات فيه بين العقارب والجن، أثناء رحلته العجيبة .. وكانت الجدران المغطاة برموز سحرية لا تزال قائمة .. ثلاثون عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية، أو أزهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة ..

لكن فى طرف من المعبد طرح أحد هذه الأعمدة حمله القديم متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمة ، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة . . فعرف فيه بافنوس العمود الذى ظهر له فى حلمه ، وقدر ارتفاعه باثنتين وثلاثين ذراعاً . . فقصد البلدة المجاورة وأوصى بصنع سلم بهذا الارتفاع ، وصعد عليه ، وركع فوق القمة ، وتمنى أن لو أبقاه ربه حيث هو الآن ، فى حماه ، حتى يحين حينه وتوافيه المنون . .

ولم يكن معه من الطعام شىء ، توكلاً على العناية الإلهية ، متوقعاً أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته . . وحدث فى عصر اليوم التالى أن حمل إليه بعض النسوة والأولاد تمراً وماء . . ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكن الراهب من التمدد بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملقى على صدره . وكانت متاعب النوم أشد من عذابات اليقظة . . وعند الفجر كانت البواشق تصفعه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً . .

واتفق أن النجار الذى صنع السلم كان رجلاً صالحاً ، فقلق من جراء تعرض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من خطر السقوط وهو مستغرق فى نومه ، فأقام فوق العمود

سقفاً ، وركب حوله سياجاً . . وما لبث أن ذاع فى البلاد صيت هذا المقام العجيب . وأقبل عمال الوادى فى أيام الآحاد مع نسائهم وأولادهم ليشاهدوا « صاحب العمود » . ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته احتشدوا بقربه ، واستأذنوه فى بناء أكواخ لهم من حوله . . وكان النساك يأتون كل يوم فرقاً لينضموا إلى تلاميذ بافنوس ، وبنوا لأنفسهم مآوى حول المنسك الجوى ، وجاء الحجاج من كل فج عميق ، وقدم بعضهم من بعد سحيق ، فكانوا جياعاً عطاشاً ، فخطر لأرملة فقيرة أن تبيعهم ماءً بارداً وبطيخاً ، فاستندت إلى العمود ، ووقفت وراء قللها الحمراء وفاكهتها ، تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض ، وأخذت تنادى على الماء . . فحذا حذوها خباز وأحضر آجُرًّا ، وبنى بجوارها مخبزاً يبيع فيه الخبز والكعك للغرباء . . وأخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعاً ، فشيد رجل آخر فندقاً لنزول السادة وخدمهم وجمالهم وبغالهم . . وسرعان ما قامت أمام العمود سوق ، أحضر إليها الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم . . وثم « مزين » يقص للناس شعرهم فى الهواء الطلق ، ويسلى الجمهور بأقواله الرائقة ونكاته الشائقة . . وما انقضت ستة أشهر حتى أنشئت بلدة

بمخفر ومحكمة وسجن ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى . . .

وكان بافنوس يعلم تلاميذه وسامعيه :

— من قمة العمود ، حيث وضعنى الله ، أرى بنى البشر يروحون ويغدون كالنمل . . لكن الإنسان فى باطنه عظيم كالدنيا ، لأنه يسعها . . وهذه المشاهد المنبسطة أمامى ، هذه الأديرة والمنازل والسفن والقرى والحقول والترع والرمال والجبال ، ليست شيئاً بالنسبة إلى ما هو فى باطنى . . ففى قلبى مدن لا تعد وصحارى لا تحد . . والشر ، الشر والموت ، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يدثرانه كما يدثر الليل الأرض ، وفىَّ أنا وحدى عالم أفكار شريرة . .

قال هذا القول ، لأن اشتهاء المرأة كان متسلطاً عليه ، ممتزجاً بلحمه ودمه . . .

وفى الشهر السابع أتى إليه من الإسكندرية ، وتلّ بسطه ، وصائس ، نساء عاقرات يرجون أن يرزقن أولاداً بشفاعته وبركة العمود ، فحككن خواصرهن بالحجر . . ثم أقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنقالات ، وازدحمت بالمرضى حول العمود القائم عليه رجل الله . . فابتهل بافنوس لشفائهم . . وشاعت بين الناس معجزاته . .

وجاء عيد الفصح ، وتدفق على مدينة العجائب هذه سيل جارف من البشر .. فكنت ترى فوق السهل الفسيح حلل المصريين المخططة ، وقد اختلطت ببرانس العرب ، وجلاليب النوبيين القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان الطويلة ، وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السرارى الذهبية . وكانت النساء المحجبات يجتزن الطريق راكبات الحمير ، يتقدمهن خصيان سود يفسحون لهن بالعصىّ .. وفرش البهلوانيون سجادهم ولعبوا .. وعرض الحواة الثعابين والأفاعى .. وكانت جميع هذه المخلوقات المنوعة قد حشرت تحت السماء الصافية الأديم ، فى جو كثيف مختنق بعطور النساء وطيب الزنوج ودخان الطهى وبخور الصلوات والنذور .. وفوق هذه الصور المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه بافنوس معلق بين السماء والأرض .. وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع إلهة عارية ، فسالت التلال بأضواء زرقاء .. وخيل إلى بافنوس أنه يرى لحم تايس مشرقاً كالورد ، فى تألق المياه فى كبد الليل الياقوتى .

. . . . . .

وعوى صوت فى أذن بافنوس ضاحكاً ساخراً من مقامه العلوى الزائف .. فعرف فى ضحكته الشيطان .. وللحال أمسك

السلم الذى كان مستنداً إلى العمود، وهبط درجه . . وزلت قدماه والتفت ساقاه . . ولكنه أحس بظل العمود المنحوس فوق رأسه ، فأكره نفسه على الجرى . . وكان الكرى قد أخذ بمعاقد الأجفان . . وتسلل بين الحانات والنزل والفنادق إلى درب أوصله إلى تلال ليبيا ، إلى أن سقط إعياءً فى مقبرة مهجورة ، عند جدث منفرد بقرب ينبوع تظلله النخيل . . وكان القبر كثير الزخرف ولكنه بلا باب ، وفى داخله حجرة مملوءة بالأفاعى . . فتنهد قائلاً : « ههنا منزلى المختار ، هيكل توبتى وندامتى ، وخباء حسرتى وإنابتى » . . ثم دلف إليه وطرد الصِّلال بقدميه ، ولبث ملقىً على الحجارة ثمانى عشرة ساعة ، ثم ذهب إلى الينبوع وشرب براحة يده ، وجمع تمراً وبعض الحبوب من أغصان اللوتس فاقتات بها . . وطابت له هذه المعيشة ، فجرى عليها . .

وفى ذات يوم سمع صوتاً يقول : « تأمل فى هذه الصور لتتعلَّم ! » . . فرفع رأسه ورأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد مألوفة غاية فى الإتقان . . بعضها يمثل طهاة ينفخون فى النار ، وبعضها يمثل أناساً ينتفون ريش الأوز أو يطبخون شرائح الضأن ، وبقربهم صياد يحمل على كتفيه

غزالة مزقتها السهام ، ومزارعين منهمكين فى الزرع والحصاد ، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناى والعود ، وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها المعقوص بشكل بديع ، وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الرائقة ، أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء الصنع وجمال التكوين . . فلما تأملها بافنوس ، غض من بصره ، وأجاب « الصوتَ » بقوله : « لماذا تأمرنى بمشاهدة هذه الصور؟ إنها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمى . . إنها حياة رجل ميت ! . . »

فرد عليه الصوت : « إنه ميت ولكنه قد عاش ، وأنت ستموت ، ولن تكون قد عشت ! »

. . . . . .

من ذلك اليوم لم يذق بافنوس طعم الراحة . . واستمر الصوت يخاطبه بلا انقطاع . . ونظرت إليه الضاربة بالطنبوز محدقة من تحت أهدابها الطويلة ، ثم كلمته هى أيضاً : « انظر ! إنى خفية وحسناء . فأحبنى ! . وأفرغ فى حضنى الهوى الذى يضنيك ! إن خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع الفرار منى . . أنا جمال المرأة . . فيا أيها المعتوه أين المفرّ ؟

سوف تجد صورتى فى بهاء الأزهار ، وأناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز الغزلان ، وتموج الغدران ، وضياء القمر . . وإذا أغمضت عينيك وجدتنى فى سويداء قلبك وقرارة نفسك . . منذ ألف سنة ضمنى إلى صدره الرجل الراقد هنا ، ملفوفاً بأكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . . منذ ألف سنة تملى القبلة الأخيرة من فمى ولا يزال رقاده معطراً بشذاها . . إنك تعرفنى يا بافنوس حق المعرفة . . فكيف تجاهلنى . . أنا أحد تجسدات تايس التى لا تعد . . فقد عاشت تايس قديماً فى أسبارطة باسم « هيلانة » ، وكانت لها حياة أخرى فى مدينة طيبة . . وأنا التى كنت تايس طيبة . . والآن ، وإن كنت لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك فى ذنوبك أحملها عنك أيها الراهب الحبيب . . فما مصدر دهشتك ؟ . . أيان تذهب تجد تايس حتماً أمامك . . . »

فدق بافنوس جبهته بالحجارة وصرخ من شدة الفزع . . وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط فى كل ليلة ، وتتقدم وتتكلم بصوت جلى ، ممزوج بأنفاسها الباردة . . تطلب إليه الهوى والتسليم لها ، وتطلب إليه الإذعان . . .

واستيقظ فى إحدى الليالى على صوت ثلجت بسماعه

أطرافه ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت ، وهو ينادى مستعجلاً ، فى همس خفيف : « هيلانة ! . . هيلانة ! . . تعالى استحمى معى ! تعالى سريعًا ! » . . فأجابته امرأة لامس فمها أذن الراهب : « لا أستطيع النهوض يا حبيبى ، إن رجلاً راقداً فوق صدرى » . . فأحس بافنوس فجأة بخده وقد استقر على ثدى امرأة ، عرف أنها الضاربة بالطنبور . . ولكنها تخلصت قليلاً ، ورفعت صدرها ، فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم ، الدافئ ، العطر . . وصاح وقد أضنته مُنية القضاء المبرم والرغبة فى الموت الزؤام : « البثى ! . . البثى يا سمائى ! . . »

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضضت أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت : « وماذا يفيدك بعد بقائى ؟ . . إن ظل الظل يكفى عاشقاً مثلك أوتى مثل هذا الحدس النير ، فضلاً عن أنك قد أثمت ! . . ففيم ترغب بعد ذلك ؟ . . وداعاً . . إن عشيق يناديني . . . »

فكأنما انقضَّت صاعقة على الراهب ، فخر مغشيًا عليه . . ولما أفاق رأى حوله رهباناً فى حلل سوداء ، يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف كثيرون منهم

خارج القبر حاملين سعف النخل . . فقال أحدهم . .

« سمعنا ونحن نجتاز الصحراء صيحات مرتفعة من هذا القبر، فدخلنا فألفيناك طريحاً فوق الحجارة مغمى عليك . . ولاريب فى أن الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولوا هاربين . »

فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت : « من أنتم يا إخوانى ؟ . . ولماذا تحملون سعف النخل ؟ . . أو ليس هذا لأجل دفنى ؟ . . »

فأجابه أحدهم : « ألا تعلم يا أخى أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته قد دنت ، فنزل من جبل كلزان حيث كان معتزلاً ، ليبارك أبناءه الروحيين ! . »

فأجاب بافنوس : « وا أسفاه ! . لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . . وليس سكان هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط . . صلوا من أجلى ، أنا بافنوس كبير كهنة أنصينا ، أشقى عباد الله . . »

فلما سمعوا اسم بافنوس ، هزوا سعفهم ، وبددوا التسابيح ، تمجيداً للرجل الذى يعده الناس بالغاً يوماً من الفضل مبلغ القديس أنطوان . .

وبدأوا المسير وانضموا إلى الحفل المنظم تنظيماً تاماً كفرق

الجيش العرمرم . . وبغتة تعالى هتاف الجميع إلى عنان السماء : «هو ذا الولى العظيم ! . حبيب الله ، أبونا أنطوان ! » . . ثم ساد السكون ، والتصقت كل الجباه بالرمال ، فتقدم أنطوان . . يمحض النصح ويبذر العظات والبركات . . فلما رآه بافنوس يقترب منه ، خر ساجداً ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة : «أبتاه ! . . أبتاه ! . أغثنى فإنى من الهالكين ! . لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفى قاع قبر . . فتصلبت جبهتى من طول التصاقها بالرغام ، حتى صارت مثل ركبة الجمل . ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عنى . . باركنى يا أبت فأنجو ، هزّ الثغام فأطهر وأعود نقياً أتلألأ كالثلج . . »

فلم يجبه أنطوان ، بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التى ما كان بوسع أحد الثبات أمامها . . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فحدق فيه طويلاً . ثم أشار إليه بالدنو منه . . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال أنطوان : « إن الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . . ارفع بصرك يا ولدى بولس ، وأخبرنا بما تراه فى السماء . » . فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه فقال :

— أرى فى السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب تحيط به ثلاث عذارى ساهرات على حفظه ، كى لا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التى أعد لها السرير . . العذارى الثلاث يخاطبنى قائلات : إن قديسة على أهبة مفارقة الأرض ، تاييس الإسكندرية على وشك الموت ، وقد أعددنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها . . الإيمان ، والخوف ، والحب . .

فسأله أنطوان : « وماذا ترى أيضاً يا بنى الحبيب ؟ . . »

فنظر بولس ببله من حوله ، حتى وقعت عينه على كاهن أنصينا ، فشحب وجهه من جزع قدسى ، وعكست حدقتاه لهباً خفياً وقال : « أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً ، واستعدوا لقبض هذا الرجل ، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . . والثلاثة يحملون أسماءهم موسومة بميسم من حديد حام ، الأول على جبينه ، والثانى على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسماؤهم هى : الكبرياء ، واللذة ، والشك »

ولما نظر رهبان أنصينا إلى أنطوان بقلق ، قال القديس : « قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ، ونحن سكوت . . »

. . . . . .

أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم ير ولم يسمع شيئاً غير هذه

الكلمات التى ملأت وحدها أذنيه ، وهى : « تايس على وشك الموت ! » . . ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها . . لتراها مرة أخرى ! . . فما فائدة الكون بعد تايس ؟ . »

وأخذ يعدو ، ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . . لكن الوجدان ساقه وسدد خطاه . . فسار رأساً إلى النيل ، وقفز إلى ظهر سفينة لبعض النوبيين ، وهناك انبطح فى مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

— تباً لى من مجنون معتوه ، لأنى لم أحظ بتايس لما سمح لى الزمان ! . يا ما أشد حماقتى لأنى اعتقدت أن فى الدنيا شيئاً سواها ! . يا ويح الجنون ! . كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هى فى قبلة واحدة من قبلاتها ، وأن الحياة بدونها لا معنى لها ، وليست سوى حلم مزعج ؟ لقد فتحت لك ذراعيها المفطورتين من لحم ممتزج بعطر الزهر ، ولم تتملّ لذة الاستغراق فى حضنها ، والاستناد إلى صدرها العارى الذى لا يوصف ! .

تايس على وشك الموت ! . فلن تكون لى أبداً ! . . أبداً ! . . أبداً ! . .

يا أنوار النهار العسجدية ! . . يا ظلال الليل الفضية ! . أيتها النجوم ! أيتها السموات ! . . أيتها الأشجار المرتعشة

قمها ! أيتها الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة ! يا نفوس الرجال المتلهفة ! . ألا تسمعون : « تاييس على وشك الموت ! » . .

أيتها الأنوار الساطعة ، والأنفاس الصاعدة ، والعطور الطيبة . . امحى . . وافنى ! . .

يا بهاء الكون ورواءه ، وأشكاله وأفكاره ، اختفى واختبئى ! . تاييس على وشك الموت ! . .

تاييس كانت جمال العالم ينعكس حسنها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين . . . ما أشد بداهة أنى مائت لموتها ! . ولكن أنّى لك الموت أيتها النطفة القذرة الجافة ! أنّى لك الموت أيها الجنين المنقوع فى مرارة الضُرّ وحزازة الدمع ؟ أيها السقط الشقى ، هل يعلق بوهمك أنك ستذوق طعم الموت ، أنت الذى لم يعرف الحياة ؟ . . أريد جحيماً أبدية لا ينطفىء سعيرها ، ولا تخبو نيرانها ، كيما أبخر فيها أبدية السخط التى احتوت عليها نفسى . . .

. . . . . .

وعند طلوع الفجر ، دخل الدير . . فوجد تاييس راقدة على الفراش فى ظل شجرة التين ، يغشاها بياض ناصع ، وقد

تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقف بجانبها نساء مقنعات ، يرددن صلاة النزع : « ارحمنى يا ألله كعظيم رحمتك ، حسب كثرة رأفتك ، امح معاصىَّ » .

فناداها : — تايس ! . .

فرفعت جفنيهـــا ، ووات مقلتيها البيضاوين صوب الصوت . . وتراجعت الراهبات . . وكرر الراهب نداءه : « تايس . . » ! . . فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفتيها همس خافت : « هذا أنت يا أبى ؟ . . أتذكر ماء الينبوع ، والثمر الذى لما هززنا إلينا الجذع تساقط رطباً جنيًّا ؟ . . فى ذلك اليوم يا أبى ، ولدت للحب . . للحياة . . »

ثم انقطعت عن الكلام ، إذ دهمها الموت ، وكلل العرق البارد جبينها . . ومزق جلال السكون صوت يمامة نائحة . . ثم امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى : « اغسلنى كثيراً من إثمى ، ومن خطيئتى طهرنى . . لأنى عارف بمعاصىَّ ، وخطيئتى أمامى دائماً . . . »

ثم جلست تايس فجأة فى فراشها ، وانفتحت عيناها البنفسجيتان ، وقالت ، وهى تحدق فى الأفق وقد مدت ذراعيها نحو التلال البعيدة : « هو ذا ورد الصبح الأبدى ! . . » . .

ولمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها ، وبدت أحلى وأجمل مما كانت فى أى وقت من الأوقات . . فركع بافنوس أمامها ، واحتضنها بين ذراعيه السمراوين . . وصرخ بصوت بلغ من الغرابة فى أذنه مبلغاً أنكره هو نفسه :

— لا تموتى ! . إنى أحبك فلا تموتى ! . . اسمعينى ياحبيبتى تاييس . . لقد خدعتك ومكرت بك . . وما كنت إلا معتوهاً شقياً . . فما من شىء له وزن وهو حق إلا الحياة الدنيا متاع السرور ، وإلاّ الحب الجسدى ! . . إنى أحبك ! فلا تموتى ، لا تذعنى للمنون ! . إنك جميلة ، فتانة ، آية الآيات ! . . تعالى نتبادل الحب ، ونرشف كؤوسه ! . . انهضى يا تاييس ! .

لم تسمعه . . كانت عيناها تسبَحان فى اللانهاية ، وتمتمت : « السماء تفتح . . أرى الملائكة والأنبياء والقديسين . . فى وسطهم أحمس الصالح مملوء اليدين بالزهور . . إنه يبسم لى ويدعونى إليه . . يأتى إلى ملكان . . ها هما ذان يقتربان . . ما أجملهما ! . . إنى أرى الله . . . »

وتنهدت ابتهاجاً . . وانقلب رأسها على الوسادة بغير حراك . . ماتت تاييس .

فعانقها بافنوس باشتهاء وغل وحب . . فزجرته كبيرة

الراهبات قائلة : « تبًّا لك من لعين » ! . . ووضعت أصابعها برفق على جفنى تاييس . .

فتراجع بافنوس وهو يرتجف ، وعيناه تشتعلان ، وأحس بالأرض تسيخ وتنشق تحت قدميه . . ثم رتل العذارى نشيد زكريا . . وما لبثت أصواتهن أن انقطعت فى حلوقهن ، إذ رأين وجه الراهب . . فولين مذعورات صارخات : « وطواط ! وطواط » . فقد حلت ببافنوس نقمة ربه ، فمسخه . . فاستحال قبحاً مروعًا مجسماً ، إذا ما مرَّ بيده على وجهه ، أحس بشاعة خلقته . .

وارحمتا له . . . هداها . . وضل !

كانت تدعى .. سافو

(٢)

المصـــرية

إلى أولادى عندما يبلغون سن العشرين
« ألفونس دوديه »

فى يوم من أيام صباى الباكر كنت أسير على رصيف فندق شبرد حيث كانت مكتبة أوربية كبيرة . رأيت فى واجهتها كتابا أنيقاً عليه صورة ملونة لامرأة غريبة فى حلل شرقية ، وعليه اسم « سافو » . فوقفت طويلا . . هل سحرتنى الصورة الشرقية الغريبة ؟ أو العنوان وما فيه من موسيقى ؟

من ذلك اليوم أحببت اللغة الفرنسية ، وتمنيت أن لو عرفتها لأقرأ سافو . بل ولأترجم سافو ! . . والآن ، بعد نحو عشرين سنة ، أجدنى أخص سافو ، بعد ما عشت طالباً غريباً فى باريس كحبيب سافو ، وبعد ما رأيت سافو كثيرات بين الحى اللاتينى ومونبارناس . .

قرأت « سافو » مرات عدة ، وأثَّرت فى نفسى قبل رحيلى

إلى باريس تأثيراً عظيماً ، وأدركت عندئذ ، على سذاجة شبابى وقلة تجريبى ، مابها من حقائق ، وتمنيت أن لو عشت يومًا فى هذه الحقائق نفسها ، ومرت بى تجارب الفرح والألم ، واللقاء والفراق ، والوصل والهجر ، مثل « چان جوسان » سواء بسواء . . .

ولقد وضعها الكاتب الإنسانى الكبير « ألفونس دوديه » إنذاراً للشبان من جاذبيات الفؤاد ونزواته . . تلك التى يسميها بعضهم نزغات الشيطان . وأراد مؤلف « سافو » أن يحذرهم الاتصال بالغانيات والعيش معهن تحت سقف واحد ، لا سيما إذا كان هؤلاء النساء يحببنهم فعلا ، حباً خالصاً للحب ، لا للمادة والغرض . . فما أغرب الهجر ، باسم العقل ، مكافأة للحب ! . .

چان جوسان شاب إقليمى من عائلة عريقة محافظة تشتغل بالسلك السياسى أبا عن جد ، وقد جاء وهو على بساطة الريف وطهارة القلب يدرس العلوم السياسية بباريس ، ليصبح قنصلا لبلاده فى الخارج ، فلم يكد يصل إلى عاصمة النور والحبور حتى بهر ، وظل تائهاً فى ذلك المحيط الهائل ، الزاخر بالفضائل والرذائل . لم يكن يدرى أين يضع قدمه . لم تكن لديه فكرة عن الحياة ، فما بالك بالحياة فى باريس ؟ ! كان سجين قريته ، وسجين أسرته ،

وها هو ذا الآن أصبح حرًّا طليقاً فى باريس ، فكيف لا يعشى من نورها بصره ؟ إنه فى عنفوان شبابه يتوثب صحة وفتوة . . يرى النساء ولا يعرفهن ، يسمع بالحب ولم يذقه . . براءته وعفته وقوته تزيده عند الغوانى حظوة . وهذا سر نجاحه فى سهرة الليلة ، عند الفنان الثرى « ديشيليت » فى حفلة راقصة متنكرة ، من تلك الحفلات التى لا يقف مرحها وضجيجها ولذتها وخمرها وغناؤها ورقصها ولعبها . . . أو مفاجآتها وخطرها ، عند حد . .

* * *

— انظر إلىَّ ! . . هكذا ! . . إنى أحب لون عينيك ! . . ما اسمك ؟

— چان . .

— چان بغير لقب ؟

— چان جوسان .

— أراك من الجنوب . كم تبلغ من العمر ؟

— واحداً وعشرين عامًا .

— فنان ؟

— كلا يا سيدتى .

— آه ! الحمد لله ! . .

هذه هى الأسئلة التى وجهتها إلى چان امرأة فتانة متنكرة فى ثوب « مصرية » بأساورها وقلائدها وحلقانها ، وفضتها وذهبها ، وعصبتها وشالها ، وعطرها وكحلها ، وخواتمها وخلخالها .. فبهت لصورتها ، وبهت لبزتها ، وبهت لأسئلتها ! . . . .

كان هذا كله غريباً عنه ، جديداً عليه . . كان قد جاء به صديق إلى هذه الحفلة الباهرة .. ثم لم تلبث أن ضاعت منه آثاره ، فظل واقفاً ، حائراً ، خجلاً . . يقلب الطرف فى الراقصين والصارخين من المصورين والمثالين والشعراء والفنانين ، والنساء الجميلات الموديل و المانكان والممثلات والخليلات . . . حتى جاءته تلك المصرية تسحره بنظرها ، وتسحره بعبقها ، وتسحره بإقبالها . . .

كان كأنه جاء سوق الفنون هذا يَعرض جماله ، وفاز بالجائزة .. فإن فتاة فاتنة فى زى « يابانية » صاحت لمرآه : « ياللفتى الريفى الجميل .. الجميل ! . . » . ومرت به حسناء أخرى فى زى « أسبانية » ذات ثوب من الدانتلة الحريرية الناصعة ترقص مع رجل متنكر فى زى « الأوباش » ، فدعكت بلهفة فى أنفه طاقتها الصغيرة من الياسمين الأبيض .

لم يفهم من هذه المقدمات والمناوشات شيئاً ، وزعم نفسه

أضحوكة ، فراح ينزوى فى ركن هادئ من الشرفة ، فلم تلبث المصرية أن لحقت به ، وجلست بالقرب منه .

هل كانت شابة ؟ هل كانت جميلة ؟ لم يكن يدرى ، لأن زيها الشرقى كان قد جعل لها لوناً خاصًا بها منسجماً معها . . لعلها ممثلة . . دنت منه ، تنظر إليه وقد اعتمدت رأسها بيدها ، تحدثه بمزيج من العذوبة ، والجد ، والضنى . . أرادت أن تعرف منذ كم من الزمن هو فى باريس ، وإذا ما كان امتحان العلوم القنصلية الذى يستعد له صعباً جداً ، وهل يعرف الكثير من الناس ، وكيف حدث أنه الآن فى سهرة ديشيليت بحى « أوربا » البعيد كل البعد عن الحى « اللاتينى » ؟ . .

فأخبرها أنه جاء بصحبة صديق له قريب الشاعر « لاجرونرى » ، ذاك الذى هو شديد الإعجاب به ، وقد أثر فيه ديوانه عن الحب . . وتمتم :

« لكى أمحى المرمر الفخور بجسمك يا سافو »

« قد وهبت كل الدم الذى يجرى فى عروقى »

فإذا بها قد انقبضت واربدّ لونها ، وهبَّت واقفة قائلة : « إنى لا أحب الشعر ! » . . ثم تكلفت اتخاذ قرار كأنها تبذل جهداً ، وقالت : « مساء الخير » . . ثم اختفت .

فظل الفتى الريفى المسكين مندهشاً . . ماذا أصابها ؟ ماذا قال لها ؟ حاول أن يعرف ، فلم يجد إلا أن الأولى به الذهاب إلى النوم . . فاتجه للخروج ، شاعراً بالخجل لاقتحام كل ذلك الجمهور الهائج حتى الباب .

وكانت قد خفَّت سورة الرقص . . وإذا به يلقى صاحبه يستوقفه وهو محمل اليدين بزجاجات الشمبانيا قائلاً : « أين كنت ؟ إنى أبحث عنك فى كل مكان . هلم إلى مائدتنا حيث توجد نساء . . فيهن اليابانية التى فتنت بك ، وقد أرسلتنى للبحث عنك . خف وأسرع » . فكاد يجرى فى أعقابه . . لقد كان ظامئاً ، وكانت نشوة المرقص تغريه ، وهناك الفاتنة الصغيرة تشير إليه . .

بيد أن صوتاً همس قرب أذنه بلهجة الآمر المتوسل :

« لا تذهب ! . . . »

كان صوتَ المصرية تأمره فيطيع . . ولم يكن ذلك راجعاً إلى شكلها ، فإنه لم يكن قد تبينها ، وكانت اليابانية الأخرى تعجبه أكثر منها . . ولكنه أطاع إرادة أقوى من إرادته ، وشوقاً خفياً قاسياً لا يرحم .

لا تذهب ! . . .

وهما هذان الآن فى عرض الطريق، جنباً إلى جنب . . وكاد الفجر يطلع والمركبات تنتظر فى غبشة الصبح . والكناسون والعمال فى طريقهم إلى عملهم ينظرون إلى هذه الحفلة الصاخبة، وإلى هذين العشيقين المنصرفين إلى وكرهما . . .

سألته : « عندك أو عندى ؟» . فرأى أن يكون ذلك عنده دون أن يدرى سبب هذا التفضيل ، فأعطى الحوذى عنوانه البعيد . . ولم يتحدثا إلا قليلا خلال الطريق الطويل ، وقد أخذت بين يديها إحدى يديه ، فشعر بصغر يديها وبرودتهما . ولولا هذه البرودة ، وهى ظاهرة عصبية ، لزعم أنها نائمة .

ووقفت المركبة بشارع «جاكوب» أمام فندق «طلاب» . وكان عليهما صعود أربع طبقات عالية عسيرة .. فاقترح أن يحملها ضاحكا ، ولكن بصوت خافت ، حتى لا يوقظ الدار الراقدة ، فقبلت . . فحملها بساعديه العبلين كالطفل ، وصعد الطابق الأول فى نفَس واحد ، وهو سعيد بحمله الرقيق ، وقد التفت حول عنقه ذراعان ناعمتان عاريتان .

وبدا الطابق الثانى أطول من الأول ، دون مسرة . . وقد استرخت المرأة واستسلمت وزاد وزنها، وصار معدن أساورها ، الذى كان منذ لحظات كأنه يداعبه ، يضغط شيئاً فشيئاً ،

بقسوة فى لحمه . . وفى الطابق الثالث صعد الهوينا ، وجعل يلهث كمن يحمل بيانو ، بينما هى تتلذذ وترتاح لمركبها . . حتى الدرجات الأخيرة ، التى صعدها واحدة بعد واحدة ، كأنها جبل شاهق وقد دارت به الدنيا . . ولم يعد ما يحمله امرأة ، وإنما هو شىء ثقيل مروع يخنقه خنقاً ، ويكاد فى كل لحظة يهم بتركه ، وإلقائه فى غضب ، ولو قتله .

ولما وصلا إلى باب حجرته ، فتحت عينيها قائلة : «أسَرعان ؟! » . . فقال فى نفسه : «أخيراً . . » . ولكنه لم يفه بها . . وكان شديد الشحوب ، وصدره يعلو . وينخفض يكاد ينفجر . .

صعود هذا السلم ، ضباب الصبح الرمادى الحزين ، يمثل كلَّ حديثهما ، وهو قصتهما من أولها إلى آخرها . . .

* * *

استبقاها يومين . . ثم راحت ، تاركة له أثر جسد ناعم وقميص حريرى . . لا يعلم من أمرها إلا اسمها وعنوانها : «فانى لجران — ٦ شارع الاركاد» ، وكلمة على بطاقتها الصغيرة ، الأنيقة ، المعطرة : «وإذا أردتنى فاطلبنى تجدنى دائماً طوع يدك . . » ولكنه كان جادا ، حازما ، يخشى لهو باريس وعبثها . . فلم

يفكر فى تجديد تلك النزوة الغرامية الطارئة، نزوة ذات مساء. وكان بينه وبين امتحان نوفمبر ثلاثة أشهر، وبعده يتمرن ثلاث سنوات أو أربعاً فى مكاتب الحكومة القنصلية، ثم يذهب إلى مكان ناءٍ بعيد..

وكان مستعداً لهذا النفى الاختيارى. فهو موروث كما ذكرنا فى أسرته. وعلى ذلك لم تكن باريس عنده إلا المحطة الأولى من سفر طويل، وهذا ما يحول بينه وبين الارتباط بأية علاقة جدية من حب أو صداقة.

وبعد أسبوع أو أسبوعين من تلك الحفلة الراقصة، كان جوسان قد أضاء مصباحه، وأعد كتبه على منضدته، وراح يذاكر، عندما سمع دقاً خافتاً خجولا على الباب، وظهرت امرأة فى ثوب ناصع أنيق، فلم يعرفها إلا بعد ما أزاحت عن وجهها قبعتها وقناعها. ولما رأت نظرته الحائرة على كتبه أمسكت بنسخة من مجلة «الطواف حول العالم»، ووعدته بألاَّ تزعجه، وراحت تتظاهر بالمطالعة.. ولكنه ما كان يرفع نظره إليها حتى يلاقى نظرها.

لله ما أشجعه فتى يجلس إلى مكتبه بينا هذه الحسناء الشائقة بين يديه، فلا يأخذها فى أحضانه، تلك المرأة التى كلها فتنة

وإغراء ، برأسها الصغير وأنفها القصير ، وشفتها المتلهفة على القبل، وقوامها اللدن الذى هو نداء إلى الغرام ، وثوبها الباريسىّ السليم الذوق الذى يختلف تماما عن ثوب « الفلاحة المصرية » الذى كانت تتنكر به ليلة عرفها .

وخرجت فى الصباح التالى مبكرة . . وعادت فى الأسبوع مرات . . وكانت فى كل مرة تدخل بذلك الحياء والشحوب ، وذات اليدين الرطبتين ، وذات الصوت المختلج تأثراً . . . وهى تقول : « أواه ! إنى أعلم أننى أضايقك ، وأننى أرهقك . . وكان علىّ أن أكون أشد من ذلك أنفة . . ولكن آه لو علمت ، ففى كل صباح أقسم وأنا منصرفة من لدنك ألاَّ أعود . فإذا ما جاء المساء تملكنى شوق إليك كالجنون » .

فكان ينظر إليها باسماً لا يكاد يدرك كنهها ، لأنه لم يكن قد عرف حتى الآن إلا فتيات تافهات ، من البارات أو الملاعب ، لا يتركن فى داره إلا « القرف » من ضحكهن الغبى ، وأيديهن ، أيدى الطاهيات ، فلا رقة ولا فتنة . . فكان يفتح وراءهن نافذة غرفته ، لتغيير الهواء ومحو آخر آثارهن .

أما هذه المرأة « فانى » فقد كانت النعومةَ والطلاوة والخفة والرشاقة والذوق والأناقة . . وكانت تضرب فى كل فن بسهم ،

من شعر وتصوير وموسيقى وغناء . . لذلك كانت أحاديثها ممتعة منوعة . ولكن إلى اليوم لم يكن قد عرف عذاب الانتظار وخفقان القلب ، خفقانه بالاشتهاء وفروغ الصبر . . تأتى متى شاءت ، وترحل دون أن يسألها عن ماضيها أو حاضرها ، أو يتطلع إلى حياتها ، أو يغار عليها .

وشرعا يخرجان سوياً فى آخر الأسبوع إلى الضواحى ، وينامان أحياناً فى الفنادق الصغيرة المبثوثة فى كل مكان حول باريس إلى مدى أميال . . وكانت تبدو ، فى تلك الخلوات ، كأنها بنت عشرين .

وألحت عليه ، فى آخر نزهة لهما ، أن يذهب إلى بيتها ، ولم يكن قد فعل من قبل ، وأكدت له أنها حرة تماماً ، وحيدة طليقة .

ففتحت لهما الباب خادم عجوز ريفية بادية شراسة الخلق . فقالت فانى وهى متعلقة بعنقه : « هذه ماشوم . . وأنت ، أتعلمين؟ هوذا حبيبى . . . مليكى . . . قد أتيت به . . . فأسرعى وأضيئى النور فى كل مكان ، واجعلى البيت جميلاً ! . . . » .

فتأمل چان فيما حوله فرأى لوحات زيتية صغيرة مهداة إلى فانى ، وتمثال « سافو » من المرمر للمثال « كودال » يشبه

خليلته فانى .. وأعجب بذلك الأثاث القليل المترف الذى تجلى فيه الذوق السليم .. ولم ينغص عليه إلا ما بدا من شراسة الخادم، ونظرة الريبة التى حددتها إليه، حتى اضطرت فانى إلى صرفها، فخرجت وقرقعت بالباب وراءها، فقالت فانى: «لاتهتم للأمر، فهى ناقمة على حبى إياك ... وهى تدعى أنى بذلك أخسر حياتى .. فهؤلاء الفلاحون من الطمع على شىء كثير! وإن طهيها لأفضل منها .. ذق هذا الطاجن من الأرانب .. ياحبيبى!»

وتحدثا عن ليلة تعرفهما، وعن شغفها به إذ رأته لأول مرة فى سهرة ديشيليت، ورغبتها فى أن تخطفه خطفاً حتى لا يأخذه منها أحد سواها! وقضيا ليلة حب بذلت له فيها بالروح والجسد ما لا يبذل فى سنين ..

ولم يطلع النهار حتى استيقظ على صوت ماشوم، وهى تصرخ عند السرير:

— إنه هنا .. يريد مخاطبتك؟!

فصاحت فانى:

— هنا؟! ألست إذن حرة فى بيتى؟ كيف سمحت له بالدخول؟

ثم نهضت ساخطة، وهى نصف عارية، وسألت چان ألا

يتحول عن مرقده لأنها لا تلبث أن تعود . . ولكنه لم يطمئن إلا عندما نهض بدوره ولبس حذاءه فى قدمه ! وطرق سمعه صوت رجل ينتهر بادىء ذى بدء ، ثم يشكو ويتألم ، ويتوسل ويبكى ، ويتنهد . . صوت يختلط بصوت آخر فيه من فحش القول ما ذكره بشجار الحانات . . إذن فهذا ترف كله دنس . . وهذه المرأة دنسة مثله . . . على نسق أولئك اللواتى احتقرهن من قبل ! !

ثم عادت تلهث ، تعدل برشاقة شعرها ، وترثى للرجل يبكى ، وتتهمه بالبلاهة . فلما رأت حبيبها ، وكان واقفًا ، لابسًا ، صاحت غضبًا لقيامه من الفراش ، وأمرته بالعودة إلى الرقاد سريعًا . . ثم لانت ، واكتسب صوتها نعومة وحرارة :

— لا ! لا ! لاتذهب عنى هكذا . . إنى واثقة من أنك لن تعود .

— ولم لا ؟

— أقسم أنك لست غاضبًا . . وأنك ستعود . . أواه ! لشدما أعرف طبعك !

فأقسم لها كما أرادت . . ولكنه لم يعد إلى الرقاد رغم توسلاتها ، وأيمانها بأنها حرة فى بيتها وحياتها ، تفعل ما طاب لها ، ثم رضيت برحيله ، ورافقته حتى الباب ، خافضة جناح المذلة ،

محاولة أن تنال الصفح والغفران . . واستبقته فى الدهليز لتقضى لبانتها من عناق طويل قبل الرحيل . . وسألته : «متى؟» . . وهى تحدق بعينيها فى قرارة عينيه . وكان سيجيبها بكذبة دون شك تعجلاً للذهاب ، فإذا بالجرس يدق ويقف ، وماشوم تخرج من مطبخها ، ولكن فانى تشير إليها بألاّ تفتح ، ويبقى الثلاثة حيث هم ، بلا حركة ولا كلام .

ويسمعون تنهدات حارة مخمدة ، ثم صوت خطاب يدفع من تحت الباب ، ثم صوت أقدام تنزل السلم الهوينا . . فقالت فانى : « أوَلم أقل لك إننى حرة فى أمرى ؟ . . إليك ! » ودفعت إليه بخطاب المحب المهجور . . خطاب غرام كسير خسيس مكتوب بالقلم الرصاص فى عجلة على منضدة مقهى ، يسأل فيه المسكين الصفح عن جنون الصباح ، ويعترف بأنه ليس له أى حق قبلها ، إلا ما تريد أن تمنحه له ، ويتوسل جاثياً ألا تنفيه بغير رجعة ، واعداً بأن يقبل كل شىء ، ويحتمل ما لا يحتمل . . على شريطة ألا يفقدها . . .

وإذا بها تضحك ضحكاً هو الشر كله . . هذا الضحك قد أبعدها عن قلب جان الذى أرادت أن تغزوه . . لم يكن خبيراً بقلوب النساء . . لم يكن يعرف أن المرأة التى تحب

لا تدع ، لغير مخلوق واحد ، هو حبيبها ، سبيلاً إلى عطفها أو حنانها أو شفقتها أو ميلها . . قال چان وقد أخذ بيديها :

— ومع ذلك أنت مخطئة فى سخريتك . . فهذا الخطاب مؤثر حقاً . . فلم تطردين صاحبه ؟

— لم أعد أريد ذلك ، وإنى لا أحبه .

— بيد أنه كان خليلك . . . وقد اشترى لك هذا الترف الذى تعيشين فيه ، وهو ضرورى لك ! .

فقالت بلهجة صريحة :

— كل هذا كان حسناً جداً قبل أن أعرفك يا حبيبى . . الآن هو عبء وعار . . وقلبى يتميز منه ويثور عليه . . آه ! . . أعلم أنك تريد أن تقول إن علاقتنا غير جدية ، وأنك لا تحبنى . . ولكن هذا شأنى . . وسواء أردت أم لم ترد فسأقهرك على حبى !

فلم يجب واكتفى بضرب موعد للغد ، وانطلق ، تاركاً للخادم ماشوم بقية ما فى جيب « الطالب » من مال . . وكان الأمر عنده قد وقف عند هذا الحد . . فبأى حق ينغص حياة هذه المرأة ؟ وماذا يستطيع أن يعوضها عما تفقده معه ؟

وكتب إليها بهذا كله ، فى اليوم نفسه ، مخلصاً قدر استطاعته ، دون أن يصرح لها بأنه شعر فى علاقتهما بما اهتز له

واشمأز منه ، عقب ليلة الهوى ، من تنهدات الخليل المخدوع ، وضحكاتها الفاجرة . .

لقد كان فى ذلك الفتى الإقليمى الذى أرسل فجأة إلى باريس ، كرامة الريف ، وعزة الأبوة ، ورقة الأمومة . . فاستنكف هذا كله .

أما هى فقد عادت دون أن تيأس من رفضه المتوالى ومن الباب الموصَد فى وجهها ومن الاعتذارات الكاذبة . . فكتبت له : « لم تعد لى كرامة . . . حقاً إن الهوى هوان » . . وكانت تتربص بساعات تردده على المطعم ، وتنتظره أمام المقهى الذى يقرأ فيه الصحف ، ولكن دون بكاء ، أو تمثيل وشجار . . فإذا كان برفقة إخوانه قنعت بأن تتبعه حتى ينفرد ، فتسأله : « أتريدنى الليلة؟ . . كلا ؟ إذن سيكون ذلك فى مرة أخرى » .

وتنصرف تتعثر فى أذيالها ، وديعة ، جميلة ، تاركة له الندم على قسوته ، والخجل من كذبته التى يرددها فى كل لقاء : « الامتحان على الأبواب . . لا وقت عندى . . فيما بعد » راجياً أن يسافر بعد الامتحان فى الإجازة إلى الريف لتنساه .

ولكن لسوء الطالع لم يكد ينتهى الامتحان حتى مرض چان مرضاً شديداً ، فوقفت فانى إلى جانبه ، تبذل له من عنايتها

وعطفها وحبها ما لا تبذله الأم لابنها . . ولم تكن تنام من لياليها ، عشر ليال سويا ، إلا ساعتين على كنبة حقيرة ، كنبة حجرة الطالب فى فندق بالحى اللاتينى . . فاما خفت عنه الحمى وتنبه لوجودها ، قال : « ولكن أفلا تذهبين يا مسكينتى فانى إلى بيتك ؟ إننى الآن أحسن حالاً . . فيجب أن تطمئنى ماشوم » فطفقت تضحك . . فلم يعد هناك بيت ، ولم تعد هناك ماشوم . لقد باعت الأثاث ، وفضت العقد ، ولم يعد لها إلا الثوب الذى عليها . . فإذا طردها الآن فإنها تصبح على قارعة الطريق .

* * *

هكذا صبر الحب وظفر . . عانت كثيراً ولم تيأس قط . وها هى ذى قد ارتبطت به اليوم رباطاً وثيقاً لا انفصام له . إنما جاءت لتمر فى حياته بكل تجاربها وما اكتسبته من خلان لها ، خلان رجال ذوى تجاريب أيضاً ومعارف وفنون . . كانت هى الأقوى بهذه الخبرة ، وهذه المعرفة ، وهذا الحب . إن حبها إياه انتقام منها لسواه ، أو هو انتقام لنفسها فيه من رجال سواه .

ووجدت لهما مسكناً من ثلاث غرف وشرفة كبيرة فى الدور الخامس :

— إنه مرتفع . . . ولكنك ستحملنى . . . فما كان ألذ ذلك ، أتذكر ؟

إنه يذكر حتماً .. لأنها تعلقت بعنقه مرة أخرى باحثة عن مكانها ، فى أول ليلة تعرفهما ، مكانها الذى اقتعدته من جسمه وقلبه جميعاً .

كان الوكر هو الفخ .. وكان لا بد له من أن يقع فيه ، فما أكثر الرجال الشرفاء المستقيمين الذين تزعجهم حياة الخارج المضطربة فى الفنادق والمطاعم ، ويتمنون حياة « البيت » لأنها فى فطرتهم أثر التربية العائلية واعتدال المزاج .

وشعرا بضروب جمة من المسرات فى شراء الأثاث من هنا وهناك .. وأبلغ چان أهله فى الريف بتحوله من الفنادق إلى شقة .. فأرسلت إليه عمته « ديڤون » — حارسة الدار — بعض النقود والأثاث . . ووضعت فانى فى ذلك العش كل ذوقها ، وبدأت حياة جديدة سعيدة . . فلا يكاد چان يغادر وزارة الخارجية ، حيث يتمرن على الأعمال القنصلية ، حتى يبادر إلى البيت ، لأنه أصبح جنته . وأبدت فانى فى الطهى مهارة لا تقل عن مهارتها فى الهوى . وقد طاب چان عيشاً وقر عيناً . . فهل هو الآن عاشق ؟ ! كلا . . ولكنه عارف بجميل الحب الذى يشمله .

وكان يتساءل : كيف رضى أن يعيش قبلا ذلك العيش المضطرب ، يتنقل من فندق إلى فندق ، ومن مطعم إلى مطعم ، ومن فتاة إلى فتاة ؟ ! إن هناءه اليوم لا خطر عليه منه غداً . فقد أنذر فانى سلفا بالفراق المحتوم يوما . أما أهله فلو عرفوا ، وخاصة والده ، فإنهم سيغضبون حتماً من هذا العيش المشترك المقضى عليه بأنه ضد الشرف . . ولكنهم بعيدون عن باريس . . أبوه لا يستطيع مغادرة مزارعه الواسعة ، وأمه مريضة لا تستطيع أن تخطو خطوة إلا مستندة إلى ذراع ، وعمته ديفون تتولى البيت ، وأختاه صغيرتان ، وعمه « سيزار » زوج ديفون هو طفل كبير لا يتركونه يسافر وحده !

وهكذا جعلت الأيام تجرى رخاء .. حتى كان ذات يوم فى طريقه إلى البيت ، فسمع صوتاً يناديه ، وإذا به المثال المشهور كودال ، مبدع « سافو » والمهندس الفنان الثرى ديشليت الذى تقام فى داره السهرات المشهورة ، جالسين فى مقهى ، فسألاه عن سافو ، فإن أحداً لم يعد يراها . . فدهش چان ، لأنه لم يكن يعرف أن « سافو » المثال كودال ، هى خليلته « فانى لجران » . . فاستنكف هذه المباغتة . . ودفعه ذلك إلى الكذب وإنكار أنها ما زالت تعيش معه . . كما دفعته إليه أيضاً الرغبة فى معرفة

ما يجهله عنها .. قدما له كأساً ، ولكنهما قطرا فيها بحديثهما سماً .. فعرف أن فانى هى سافو . . . هى التى أوحت إلى كودال آيته الفنية ، لأنها كانت خليلته . . . وهى أيضاً التى أوحت إلى لاجرونرى ديوانه الرائع « كتاب الحب » ، لأنها كانت خليلته . . وهى التى أوحت إلى سواهما آيات الصور والتماثيل والأشعار والقصص .. وهى التى انتهت حياتها الغرامية المضطربة بالسجن ستة أشهر فى « سان لازار » على ذمة التحقيق فى قضية برئت هى منها ، ولكن خليلها « فلامان » حكم عليه بالسجن عشر سنين . . وقد كان فلامان هذا رجلاً جميلاً حفاراً فقيراً جن بها جنوناً ، وخشى أن تهجره إذا قصر فى توفير أسباب الترف والرفاهية لها ، فراح يزيف الأوراق المالية حتى كشف أمره ، وسيق إلى السجن ، بين عويلها وانتحابها وقبلاتها ، وهى تصرخ بصوت يُلين الصخر الجلمود : « لا تسأم يا حبيبى فسوف تعود أيام الهناء ، وسوف نعود فنتمتع بالغرام ! . . »

ومن يوم هـذه المأساة ، وقد ذاع صيتها كلها ، قد تأثرت بحكاية هذا الحب المقهور ، وتزاحم عليها الأغنياء من هواة الروح والجمال ، فاتخذت منهم عشاقاً لشهر أو لأسبوع ، ولم تعد تطيق الفنانين ، حتى جاءها چان فاستسامت له وهامت به .

سمع هذا كله چان .. وسمع أن هذا قليل من كثير فى حياة خليلته التى ليست شابة كما تبدو ، لأنها الآن فى نحو السابعة والثلاثين ! فشعر بأنه يموت من كل هذا السم الذى تجرعه .. فبعد ما أحس بثلج يغمره أحس النار تلتهمه .. واستقر رأيه على القطيعة .. وانصرف على هذا العزم إلى مقهى يكتب إليها بذلك خطاباً . يا للعار ! أيعاشر امرأة رأت كل هؤلاء الرجال ؟ ! أيعيش تحت سقف واحد مع خليلة مزيف النقود التى لبست ثوب السجن وانتحبت فى محكمة الجنايات على خليلها ، وأرسلت إليه بين العبرات والقبلات وعداً بالوفاء والولاء ! ؟ ... هو ! هذا الإقليمى الشريف من بيت عريق محافظ يعاشر قارورة هذا الإثم كله ؟ !

فجرب كتابة خطاب ، ولكنه عاد فمزق خطابين أو ثلاثة . وكانت إلى جانبه فى المقهى فتاة مسكينة من اللواتى يأكلن الخبز بالجسد والدمع ، تأكل « رنجة » مشوية بنهم ، وتنظر إلى كوب البيرة التى أمامه لم يذقها ، والتمستها منه ، فأعطاها إياها ، فتجرعتها مرة واحدة .. فشعر بالشفقة ، وأدرك مبلغ ما يصيب المرأة فى حياتها من شقاء .. وطفق يراجع نفسه فى ألمه ، ويحكم من الجانب الإنسانى .. فخليلته فى الواقع لم تكذبه ، ولم

تنكر حياتها ، ففيم يلومها ؟ أيلومها لما قضته فى سجن سان لازار وقد خرجت بريئة ؟ أيلومها على رجال من قبل ؟ أفلم يكن يعرف ذلك ؟ بأى حق يلومها ؟

على أن هؤلاء الرجال كانوا شخصيات بارزة معروفة ، يستطيع أن يلقاهم ويحدثهم ويرى صورهم فى كل مكان ؟ . . . أيكون ذنبها وجرمها أنها فضلت لحظوتها وآثرت بحبها هؤلاء ؟ . . .

***

نزلت عن رسائل الغرام التى وجهها إليها هؤلاء جميعاً . . لأنها قدمتها قرباناً لحبها إياه و برهنت على أنه الأثير ، الوحيد . . . وشرع يحاسبها حساباً عسيراً ، بفرز الرسائل قبل أن يلقيها فى النار ، وترتسم فى ذهنه وتنطبع فى نفسه تلك العبارات البليغة الجديرة بالحفظ ، لأنها مكتوبة بأقلام مشهورة ، وكأنه قد قرأها وحفظها من قبل .

وشعر بأن جو باريس لم يعد يصلح لهما روحياً ومادياً . . وسكنا ضاحية «شافيل» تحيط بها الغابات والأحراج . . ولكن چان كان ما يزال يشعر بالغيرة . . فهو إذن محب . وكان يغار خاصة من مزيف النقود فلامان ، فقد كان جميلا أشقر

الشعر ، محبوباً مثله . . أما هى فلم تكن ترضى أن تذكر فلامان أمامه بخير ، ولكنها كذلك لم تكن ترضى أن يذكر بشر . . كانت تقول : « إننى لم أعد أحبه ، لأننى أحبك . . ولكن يستحيل على أن أحتقر الرجل الذى عبدنى إلى حد الهوس والإجرام » . وكان جان يحترم على رغمه صراحتها ، وكثيراً ما كانا يغضبان ، ولا يدوم غضبهما إلا قليلا .

حتى كان ذات يوم رأى فيه ، فى القطار ، فتاة مشرقة الحسن ، طيبة القلب ، ذهبية الشعر ، لها ثغر طفل دائم الابتسام . . يفيض شبابها بالهناء .

بادلته النظرات البريئة ، فاضطرب . . فإذا بأبيها يعرفه ويعرف أهله . . فتحدثوا ودعواه إلى بيتهما . . فتردد عليه . . وخيل إليه أنه يحب الفتاة . . وإذا بزواجه منها يصبح قاب قوسين أو أدنى ! . . وتحدد موعده فعلا ! . .

وهو يعتذر لخليلته ، شاحباً ، لغياب طويل . وراح يكذب : إن عليه أن يقضى أربعاً وعشرين ساعة بين أهله ، ثم يسافر إلى مرسيليا ليحل محل زميل له . . فنهرته ، وانفجرت ساخطة ، وقالت له : قل إنك تتزوج وكفى . . إن أهلك منذ زمن طويل يعدون لك ذلك ، فإنهم يهلعون من علاقتنا ، فهنيئاً لهم

فقد ظفروا . . وقد وجدوا لك عروساً تصلح لك . . . فهى لا شك حمقاء ! . .

وضحكت كمداً . . فاعترف لها ، وسألها : ماذا يضيرها مادام فراقهما محتوما يوما ؟ فراحت تسبه ، ولا تدع فى الشتائم لفظاً إلا وتنعته به . . فسمعها صابراً ، لم يحاول إسكاتها . . ولكنها صمتت بغتة ، وقد خارت قواها ، وجثت أمام حبيبها ، وتنهدت ، وسألته صفحاً وغفراناً ، لأنها تحبه : « عفواً ومغفرة . . إنى أحبك . . ليس لى فى الدنيا سواك يا حبيبى . . يا حياتى . . لا تفعل هذا . . لا تتركنى . . ماذا تريدنى أن أصبح من دونك ؟ . . . »

فاشتد تأثره . . لقد وقع ما كان يخشاه . . فانتقلت الدموع منها إليه . . وحاول أن يخفف ما بها وبه ، فقال لها : إن فراقهما على أى حال محتوم . . وهى ترد عليه صارخة كأنها تتعلق بآخر أهداب الأمل :

— لم يؤن الأوان بعد . . لو أن عليك الرحيل لتوسلت إليك قائلة : ابق أيضاً ، وتمتع بالحب . . فهل تزعم أن مثل حبى إياك يمكن أن يوجد مرتين فى الحياة ؟ . . إن أمامك الوقت للزواج . . وأنت شاب . . أما أنا فلا ألبث أن أنتهى . . وعندئذ طبعاً يحين الفراق .

أراد النهوض . . ولكنها راحت تغرقه بقبلاتها وعبراتها ، وتنهار بين قدميه ، وتربت على وجهه ، تحاول أن تشعل مرة أخرى النار تحت الرماد . . تردد له كل الكلمات العذبة التى تذكره بالماضى السعيد ، وتعده بأن كل ما مضى لا يذكر بجانب ما هو آت . . فهى تعرف قبلات ، ونشوات ، وجنونيات ، وغراميات أخرى ، وستبتكر من هذه كلها جديداً له . .

— قل إنه ليس حقًا . . ليس صحيحاً أنك تهجرنى ، وتتخلى عنى . .

وهكذا جرده هذا اليأس الأليم من سلاح القطيعة ، فوعد بالبقاء . . . يا لها من ليلة فى الليالى ! . . لقد فنيا فيها معاً روحاً وجسداً . . خفتت أصوات الشكوى والجزع ، وبقيت « آه » العميقة التى تهز الكائنات منذ بدء الدهور .

قال لها إنهما سيرحلان . . فزعمته مازحاً ليمتحنها . . ولكنه قال إن أمامه وظيفة خالية فى أمريكا الجنوبية ، وأمامه خمسة عشر يوماً يعد فيها حقائبه .

— وزواجك ؟

— لا حديث عنه بعد اليوم . . إن ما أعمله لا صلاح بعده ، وأرانى لا أستطيع فراقك .

— يا بنى الحبيب ! . فهل تلك البلاد التى تقصدها بعيدة ؟

— بعيدة جداً . . فى بيرو . . هناك لا يستطيع فلامان أن يتبعك !

فظلت مستغرقة فى أحلامها . . .

***

إنه الآن فى مرسليا منذ يومين ينتظر فانى لتبحر معه . كل شىء معد . . الأماكن محجوزة فى الدرجة الأولى بالباخرة . . وهو مضطرب الأعصاب ، نافد الصبر ، كلما صفرت باخرة انقبض منه الصدر . . حبيس غرفته فى الفندق ، لا يجرؤ على الخروج ، كما لو كان مجرماً ، أو هارباً ، يخشى أن يلقى فى شارع أباه ، أو ذاك الذى كان سيكون حماه .

أمامه ٢٤ ساعة أخرى ، لأن فانى لن تأتى إلا يوم الأحد . . فقد كانت تلك الأيام الثلاثة سيقضيها بين أهله . . ولكن أباه لما علم بفسخ الزواج ، وأدرك الأسباب ، نهر ابنه وطرده ، وحرمه حتى وداع أمه . . . بينما كانت كل أخت من أختيه تبكى ، وتتعلق بذراع أبيها سائلة إياه غفراناً لأخيهما الكبير . . ومضى چان دون أن يقبلهما ، أو يرى والدته . . وكان يختنق لهذه الذكرى . . من فراق بغير وداع .

وكانت الليلة الأخيرة لا يكاد ينتهى لها سواد ، وكأن الغد قيام الساعة . . وكان يتقلب على فراشه يتمنى النور و بزوغ الفجر ليلقى البحر . . . والنسيان .

وطلع النهار جميلاً مشرقاً ، كأنه يرحب بالحب والحياة . و بينا هو يغادر الفندق ليذهب إلى لقاء فانى فى المحطة ، إذا بغلام يقدم إليه خطاباً وصل هذا الصباح ، فدهش . . من ذا يمكن أن يكتب إليه ، وما من أحد يعرف عنوانه إلا فانى ؟ ولم يكد ينظر إلى الغلاف حتى خفق قلبه . . وأدرك . . .

* * *

« كلا . . فلست راحلة معك ! . . إنها حماقة أكبر كثيراً من أن تحتملها قواى . . فامثل هذه الوثبات يا صديق لا بد من الشباب ، ولم يعد لى . . أو من عاطفة عمياء مجنونة تنقصك وتنقصنى . . وها قد انقضت علينا خمس سنوات ، كانت فيها إشارة منك تحملنى على قطع الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . . لأنك لا تنكر أننى أحببتك بكل جوارحى . . لقد أعطيتك ما كان عندى . . فلما لزم فراقك تألمت ألماً شديداً لم أشعر به نحو رجل قط من قبل . . ولكن مثل هذا الحب يقصم الظهور . إن رؤيتك جميلا فتيا إلى هذا الحد كانت تجعلنى أرتجف دائماً

للدفاع عن كل هذا ! . . والآن لم يعد ذلك فى وسعى ، لقد جعلتنى أحيا فوق ما ينبغى ، وألم فوق ما أستطيع . . وقد وصلت إلى نهايتى .

« وعلى ذلك فإن هذه الرحلة البعيدة تخيفنى ، فإنى أكره التنقل ، فضلاً عن أن النساء يذبلن سريعاً من وهج الشمس ، ولن تكون قد بلغت الثلاثين عند ما أصبح أنا عجوزاً شمطاء . ولقد قرأت مرة فى أحد أعداد « الطواف حول العالم » أن هناك بلداً شرقياً ، إذا خانت فيه الزوجة زوجها ، ربطوها حية مع قطة ، ووضعوهما فى جلد حيوان مذبوح لساعته ، ثم يلقون بالجلد المربوط على المرأة والقطة على شاطىء البحر ، تحت ضوء الشمس . . فتصرخ المرأة وتموء القطة ، ثم تمزق كلتاهما الأخرى ، بينما الجلد ينكمش عليهما ، ويضيق بهذه المعركة المروعة ، حتى ينتهى الخفقان ويخفت الصوتان . . فهذا هو أو نحوه المصير الذى ينتظرنا معاً .

« كان على أن أقول لك ذلك من قبل ، ولكننى لم أجد من نفسى شجاعة ، إذ رأيتك قد اعتزمت هذا الأمر وصممت عليه . وكان قد لعب بصدرى غرور المرأة الطبيعى إذ غزوتك بعد هجرك ونلتك بعد قطيعتك . ولكننى فى نفسى

أحسست بأن شيئاً قد انكسر وانتهى . كيف لا ؟ بعد كل هذه الهزات العنيفة ؟ فلا تزعم أن هذا من أجل ذلك المسكين فلامان ! إن الأمر بالنسبة لك وله ولكل الناس قد انقضى ، وقلبي قد مات . . ولكن بقي لي ذلك الطفل الذي خلفته وأخفيته عنك من أبيه فلامان الذي غادر أمس الليمان ، متحمساً ، عاشقاً كما كان في لقائنا الأول . . . فتصور إذ تلاقينا لأول مرة بعد عشر سنين ، كيف قضى طول ليله يبكي على كتفي . . .

« حقاً يا بني العزيز أنني أحببتك حباً فوق ما أحتمل ، وقد تهدمت منه . . والآن أصبحت في حاجة إلى أن أُحَب بدوري ، وأن أدلل ، وأن يعجب بي ، وأن أدلع كالطفل . . وذلك الرجل سيكون عندي قدمي ، لا يرى قط في وجهي تجعيدة ولا في شعري شيبا . . . وإذا تزوجني كما ينوي ، فإنه يرى ذلك نعمة أنعم بها عليه . . قارن إذن . . ثم لا ترتكب حماقة . . فقد اتخذت حيطتي ، فلن تعرف طريقي ، ولن تجد لي أثراً .

« من مقهى صغير بالمحطة أكتب إليك ، وأرى خلال الأشجار البيت الصغير الذي قضينا فيه أسعد وأقسى

الأوقات تتأرجح على بابه يافطة « للإيجار » ، فى انتظار نزلاء جدد . .

« ها أنت ذا حر طليق ، لا تسمع بعد اليوم لى ذكراً . . فوداعًا . . قبلة ، أخيرة . . على العنق ، يا حبيبى . . . »

كانت تدعى .. ذات الكاميليا

غادة الكاميليـــا

غرام فى آلام

عند ما أردت تلخيص « غادة الكاميليا » ، قامت أمام عينى ثلاث غادات كاميليا ، كل واحدة أعظم فتنة من صاحبتيها ، كأنهن « النعم الثلاث » . . . غادة القصة ، وغادة المسرح ، وغادة الحياة الصميمة . . . وما أكثر ما قرأت القصة ، وشهدتها بعد ذلك فى مصر وباريس ، ودرست حياة « مرغريت جوتييه » ، أو بالأحرى « مارى بلسى » الخاصة الحقيقية ، التى يمكن تلخيصها من أولها إلى آخرها فى كلمتين : غرام وآلام .. فإنها عاشت بالحب ، وماتت به .

ليت شعرى ! هل آخذ القصة التى رواها « دوماس الصغير » ؟ أو المسرحية التى شذبت لمقتضيات التمثيل ؟ أو الحكاية الواقعية بكل ما فى الواقع من عذوبة وعذاب ؟ ! إن القصة قد قرأها الناس جميعاً ، والمسرحية قد شهدوها جميعاً . . أما حياة مرغريت

الخاصة فما زالت تخفى على الكثيرين . . وهذا هو الجانب الشائق الذى نرجو أن تبزغ عليه ، فى العربية ، الأضواء الأولى من المعرفة .

***

يكاد المرء يدهش إذ يجد أن طفولة « الغانيات » بينهن مشتركة ، سواء طفولة « كريزيس » و « تاييس » وطفولة « سافو » و « غادة الكاميليا » . . .

انحدرت « غادة الكاميليا » من أرومة منوعة الأعراق ، فيها من الدم النبيل قطرة ، ومن الدم الخسيس قطرات . . وقد رأت النور فى ١٥ يناير من عام ١٨٢٤ . . فيكون قد انقضى الآن على مولدها أكثر من قرن من الزمان . . وما زالت حكايتها تزداد على الأيام خلوداً . . ولا يمكن أن يوجد ، فى أية ناحية من نواحى الأرض ، رجل له قلب ، يقرأ أو يشهد غادة الكاميليا ، ولا تدمع له عين .

وكان أبوها رجلا بهى الطلعة ، وكانت أمها فاتنة . . وكلاهما من فلاحى « نورماندیا » ومن قرية « سان جرمان دى كلير فى » . . وولدت للرجل ويدعى « ماران بلسى » بنت قبل غادتنا دعاها « دلفين » وبعد عامين ولدت « ألفونسين » التى اشتهرت بعد

ذلك « بمارى بلسى » وأصبحت « غادة الكاملیا » التى لم يلحق مجدها فى الحب مجد .. ولكن أباها خاب أمله فيها ، إذ كان ينتظر ولداً ذكراً ، فأنزل سكره وسخطه وغضبه على رأس أمها وعاملها بنذالة أسوأ معاملة ، حتى اضطرت إلى هجر البيت والالتجاء إلى أهل لها مع طفلتيها ، وآواها رجل خير ، ثم التحقت بخدمة سيدة إنكليزية بباريس ، ولكنها ماتت وألفونسين فى الثامنة من عمرها . . واستغل أبوها « ألفونسين الجميلة » فى مختلف الخدم والأغراض ، وزج بها مرة تحت سقف صديق عزب له . ثم ذهب بها أخيراً الى باريس وعاد الى القرية من دونها . . فأشيع أنه باعها للغجر تلعب وترقص معهم . . ومن يومها أطلقوا عليه « الساحر » ، وتوقعوا أن تحيق به لعنة ربه . وقد مات فعلاً فى ٨ فبراير سنة ١٨٤١ فى أشد حالات البؤس والفاقة والمرض .

وإذا كنا قد أطلنا فى التمهيد لحياة ذات الكاميليا ، فإنما فعلنا ذلك لاستخلاص العظة والعبرة من طفولة مشتتة لا أم لها ولا بيت . فهل تلام الفتاة ؟ لعلها أولى بالعطف والرحمة والرثاء .

***

يمكننا القول بأن بطلتنا قد دخلت باريس تلبس « قبقاباً »

من خشب ! . . تلك هى الموعودة بعد قليل بغزو عاصمة النور والحبور والذوق السليم . وكان لها من العمر خمسة عشر ربيعاً ، وما زالت يومئذ طفلة وجلة تتكلم عن الشيطان والأشباح والذئاب ! . . . ولزمتها سنوات قلائل لتصبح تلك الفلاحة الصغيرة ، فى أعين أشد القضاة تشدداً وتعسفاً ، أنموذجاً أعلى لسلامة الذوق والأناقة والرشاقة ، حتى شهد لها « جول شنان » ، وهو من أكبر الصحفيين فى عصرها ، فى مقدمة الطبعات الأولى من « غادة الكاميليا » بهذه العبارات :

« إنها إنسانة فتية جميلة ، أفتن ما تكون محيا ، تسحر بمجرد وجودها ، كل من حولها ، وتثير إعجاب كل من يراها لأول مرة ، فيتساءل : من تكون تلك الفتانة ؟ فلم تكن فيها للتصنع ذرة . كانت لها النظرة الصافية ، والحركة المحتشمة ، والخطوة الثابتة ، حتى كأنها امرأة من أكبر الطبقات . . . وكان طابع الجد على محياها ، وكانت ابتسامتها آمرة ، فلا تكاد تشك فى أنها ، فى مجموعها ، أميرة . . . »

وبعد ما وصف زينتها أضاف : « . . . وكانت تحمل كل هذه الأشياء الجميلة كما لو كانت قد ولدت فى الدمقس والحرير ، فى قصر منيف ، من أصل رفيع ، على رأسها تاج ، وتحت

قديمها عالم من المعجبين المفتونين . وكذلك كانت هيبتها منسجمة مع لهجتها ، وكانت فكرتها منسجمة مع ابتسامتها ، وكانت زينتها منسجمة مع هيئتها .. وعبثاً يحاول المرء أن يجد فى أعلى فنن الدنيا إنسانة أعظم جمالاً ، وأوفر كمالاً ، وأشمل انسجاماً ، فى زينتها ، وفى بزتها ، وفى كلمتها .

* * *

— آه لو علمت كم أحبك . . .

— أحقاً ما تقول ؟

— قسماً ! . . .

— حسناً ! . . فإذا وعدتنى بإنفاذ كل رغباتى دون عبارة أو إشارة ، أو أخذ أو رد . . فربما أحببتك . . .

— كل ما ترغبين !

— ولكن اعلم أنى أريد البقاء حرة ، أفعل ما يطيب لى دون أن أسأل منك جملةً أو تفصيلاً ، فقد طالما بحثت عن خلٍّ فتىٍّ بلا إرادة ، وحبيب بلا ريبة ، ومحبوب بلا حقوق ، فلم أجد إليه سبيلا . فالرجال بدلاً من الرضا بما كانوا لا يحلمون به مرة فى العمر واحدة ، لا يلبثون أن يسألوا خليلتهم أن تؤدى لهم حساباً عن الحاضر ، وعن الماضى ، بل وعن المستقبل ! وما إن

يعتادوها حتى يطمعوا فى بسط سيادتهم عليها ، وكلما أعطوا ما يرغبون زادوا طمعاً ولجاجة . فإذا اعتزمت اليوم أن أتخذ حبيباً فلا بد له من صفات نادرة ثلاث : أن يكون واثقاً ، وطيّعاً ، وكتوماً ! . . .

— ستجدين منى كل ما تشتهين !

— سوف نرى !

— ومتى نرى ؟

— فيما بعد !

— ولم التسويف ؟

فقالت ، وهى تتملص من ذراعيه ، وتتناول من طاقة كبيرة من زهور الكاميليا الحمراء النضرة زهرة وضعتها فى عروته :

— لأنه ليس فى الإمكان دائماً تنفيذ المعاهدات فى يوم توقيعها ، وهذا مفهوم . . . فقال وهو يضمها فى أحضانه :

— ومتى أعود فأراك ؟

— عند ما تغير هذه الكاميليا لونها !

— ومتى تغير لونها ؟

— غداً بين الساعة الحادية عشرة ونصف الليل . فهل طبت خاطراً ؟

— أو تسألينى فى هذا ؟

— لا تبح بكلمة من هذا لصديقك أو لبرودنس أو لأى كان .

— لك علىّ ذلك !

— الآن قبلنى ، ولنعد الى المائدة .

هذه هى فاتحة غرام إسكندر دوماس الصغير بتلك التى خلدها باسم «غادة الكاميليا» . . وليس علينا إلا أن نضع اسم « مارى » بدل « مرغريت » و « إسكندر » بدل « أرمان » و « كليمانس » بدل « برودنس » .

وقد جرى المشهد فى غرفة زينة مارى دوبلسى ، بعد نوبة سعال حادة أصابتها ، فتركت أصحابها يتعشون ، ولجأت إلى مخدعها حتى لا تنغص عليهم صفاءهم . . فتبعها دوماس إليه ، حباً ورحمة :

« وكانت منكبة على وجهها ، على كنبة كبيرة ، وقد حلت أزرار ثوبها ، وأسندت قلبها بيد وأفلتت الأخرى . . وعلى المنضدة طست فضى ممتلئ نصفه ماء ، وفى هذا الماء تتلوّى خيوط من الدم . . »

هذا هو فجر تلك العاطفة المتأججة ، الذى لم يكد يبزغ حتى انكفأ راجعاً إلى ظلمات العدم والنسيان ، كأنه ندم

لطلوعه على دنيا . . صفوها كدر والوصل هجران .

* * *

نحن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٤ ، ولإسكندر دوماس الصغير من العمر عشرون عاماً ، مثل مارى . . وكان فتى وسيم الطلعة ، طويل القامة ، ممتلئاً صحة وتوثباً ، يمزج بين الأناقة والبوهيمية . له من توقد الذهن شعلة تجمع بين الجنون والجاذبية ، قلما شوهد أروع منها على شفتى فتى . أليس يخرج من مراهقته مصقولاً بالتجاريب والشقاء ؟ أفلا يعطينا هو نفسه لمحات منها فى قصته «قضية كلمنصو» ؟. . والأسباب جلية ، فإن أباه الكاتب الأشهر « دوماس الكبير » لم يتزوج أمه « كاترين لابى » العاملة البسيطة ، وإن كان عاشرها زمناً لم تستطع فيه أن تمسك بتلابيب زير النساء هذا المتنقل كالنحلة بين الزهور . . فهجر المرأة الشابة بحجة وصول أمه إلى باريس ، بعد مولد بطل قصتنا بقليل . .

واستعانت كاترين على العيش بفتح دكان صغير تتجر بملابس النساء الداخلية والتطريز . . وكانت مثالاً فى خلقها وذوقها . . قالت يوماً لطفلها : « يا بنى إنه ليس لك أب ، ولكن هذا لا يعنى أن أباك قد مات ، إنما معناه أن كثيراً من الناس سيحتقرونك ويسبونك لمصاب كان أخلق أن يثير عطفهم

ويدعو إلى معونتهم . . ثم معناه أيضاً أنه لا ينبغى لك الاعتماد إلّا على نفسك وعلىّ . وأنا لسوء الطالع لن أشتغل دائماً . . وكذلك معناه أن أى حزن تسببه لى فإنى مرغمة على تحمله وغفرانه . . فبالله لا تكن فى ذلك من المسرفين ! . . . »

ولكن الولد لم يسرف فى إغضاب أمه ، بل على الضد بذل جهده فى أن يرحمها ويجنبها سماع الصدمات التى عاناها من رفاق مدرسته ، فقد ظلوا نحو ست سنين يسبونه من الصباح إلى المساء ، ويتضاربون معهم ، دون أن يشير بحرف إلى أمه . وكان يموت من ذلك كل يوم . ولم يكن ينمو كغيره من الصبيان ، لأن الحزن كان يشله فيزداد كل يوم هزالا . . ولم يعد يتذوق درساً ولا لعباً . وبعدما غادر المدرسة إلى الكلية نما عقلا وبدناً . . ولكن نفسه ظلت مطبوعة طول حياته بطابع تلك الآلام الظالمة .

وفى ذلك الحين كان أبوه يتخذ العشيقات ويبدلهن . . ثم انتهز فرصة نجاح روايته « هنرى الثالث » ، التى ربح منها نحو ثلاثة آلاف جنيه ، وحصوله على وظيفة أدبية عند دوق أورليان ، فاعترف بابنه ، وأسكنه وأمه شقة بحى « باسى » .

* * *

لمحها لأول مرة فى ميدان « البورص » تصعد « فيتونها »

على باب محلات « سوز » . . وكانت فى ثوب من الموسلين المهفهف ، وعلى كتفيها مربعة من حرير الهند مطرزة بخيوط وزهور من ذهب ، وعلى رأسها قبعة من قش إيطاليا ، وفى يدها سوار وحيد متخذ من سلسلة ذهبية غليظة كان قد بدأ يشيع . .

فبهت من حسنها . . وسأل غلامًا من خدم المحل واقفاً بالباب ، فأجابه :

— إنها الآنسة مارى دوبلسى !

فلم يجرؤ على سؤاله عن عنوانها . وبعد ذلك كان مع صديقه « أوجين دجازيه » ابن الممثلة المشهورة (وهو فى القصة يطلق عليه « جاستون ») بمسرح الفاريتيه ، فرأى فاتنة لبه مشرقة من « لوجها » ، تنعم على الدنيا بالنظرة والابتسامة ، وفى يدها طاقة من « الكاميليا » ، التى لم تكن قد هانت كما هانت اليوم ، لأن زهرتها المفردة التى تباع الآن بنصف قرش ، كانت تساوى وقتئذ ريالاً . . .

* * *

وكانت تستبدل الكاميليا البيضاء بالكاميليا الحمراء ثلاثة أيام فى الشهر . . . وهيهات أن تصف الكلمات ما فى ذلك من الذكاء . . . وهو مفهوم من كل من يحب النساء . .

وفى تلك الليلة نفسها تعرف بها ، وتمكن مع صديقه دجازيه على يد كليمانس من العشاء عندها . وكانت ، عند ما وصلوا ، بعد نصف الليل ، تعزف على البيانو ، وهى فى « روب دى شامبر » من حرير لويس الخامس عشر ، فما إن رآها دوماس حتى جن جنونه . . انظر أثر ذلك فى قصته :

« . . كان جلياً أنها ما زالت فى بكورة الخطيئة . . وكانت فى خطوتها الثابتة ، وغصنها المياس ، ومنشقيها المتفتحين بلون الورد ، وعينيها النجلاوين تحيط بهما هالة رقيقة زرقاء . . تبوح بسر طبيعة جامحة النزعات والرغبات ، تنضح فيما حولها بعطر الشهوات ، كأنها قنينة من قنانى الشرق التى مهما أُحكم سدادها يتصاعد عبق رحيقها المختوم . . .

« وقصارى القول أنه كان يتجلى فى تلك الفتاة : العذراء التى جعلها اليسير محظية ، والمحظية التى كان اليسير كفيلا بأن يردها عذراء ، أشد ما تكون حبًا وطهراً » . .

وكانت ، عند ما دخلوا ، تعزف على البيانو ، وإلى جانب المصطلى وقف شاب وجيه وسيم . . . فتوقفت ، فرجاها أوجين دجازيه أن تمضى فى عزفها . . فألقت بنفسها على الكنبة . . وقالت :

— أنت تمزح . . . والموسيقى حسبى عندما أكون وحدى مع « الكونت » . . . ولكننى لا أريد أن أقضى عليكم بمثل هذا العقاب ! . .

فابتسم الكونت الشاب وقال ، مسرورًا :

— شكرًا لك ياصديقتى العزيزة .

فأجابت ، وكأنها نسيته لترحب بالزوار الجدد .

— العفو ، العفو !

وبعد هنيهة ، استأذن الفتى المسكين :

— أرجو المعذرة فقد آن ذهابى إلى النادى .

فلم تحر مارى جواباً . فتقدم نحوها :

— أستودعك الله يا سيدتى .

— أسرعان ما تنصرف ؟

— أخشى أن أثقل عليك .

— آه ! . . لن تثقل اليوم أكثر من كل الأيام !

وما كاد ينصرف ، حتى راحت كليمانس تلوم الفتاة :

— إنك لا تعرفين يا مارى ما تفعلين مع مثل هذا الرجل الرقيق ! . . انظرى هذه التحفة الثمينة التى وهبك . . . إنها تقدر بالألوف !

— يجوز . . ولو وضعت ما يعطينيه فى كفة ، وما يقوله لى فى الكفة الأخرى ، لألفيتنى أمنحه زياراتى بثمن بخس . . وأنى معه لمن الخاسرين ! . .

— إن حبه لك لا يخفى .

— لو أن علىّ أن أستجيب لكل محب لما وجدت وقتاً لطعامى . . . والآن ما رأيكم فى عشاء حبى نخلص فيه من حديث الكونت الممل ؟

هذا هو الكونت الذى غمرها بالهدايا النفيسة، وأرسل لها ، قبل أن يتعرف إليها ، قبيل عيد ميلادها بقليل ، صندوقاً فيه اثنتا عشرة برتقالة من أمتع الأنواع ، وكل برتقالة ملفوفة فى ورقة مالية من ذات الـ ١٠٠٠ فرنك ذهباً ! . . . ومعها بطاقة بيضاء ليس فيها غير هذه الكلمات : « تحية للسيدة مارى دوبلسى » . . وظلت مارى تجهل المرسل تماماً ، حتى جاءها يوم عيد ميلادها ، فى ١٦ يناير ، غلام يحمل حلية ثمينة من الأحجار الكريمة ، ومعها خطاب يعلن فيه حضوره الغداة ليقدم تحياته .

وجاء الكونت . . فلم يغز القلب الحصين الذى امتنع عليه وصده ، برغم هداياه الثمينة . . فقد تبينت مارى للحال خشونة طبعه وابتذال أساليبه . . حتى حدث ذات ليلة أن كان وإياها فى

فى مقصورة بالأوبرا يحضران تمثيل « الهوجنوت »، فجعل فى فترة الاستراحة يقهقه بصوت مرتفع لفت جميع النظارة نحوهما . . فنهضت مارى من فورها، وقالت إنها ستعود بعد قليل . . ولم تعد أبداً . . .

ونعود إلى العشاء الحافل، بين الموعودين بحب سيصبح مضرب الأمثال . . ثم نوبة السعال الحادة التى انتابت مارى وجعلتها تغادر المائدة لتحبس نفسها فى مخدعها، ثم نهوض دوماس الصغير بعد لحظات فى أثرها . . بينا كؤوس الشمبانيا مترعة، والهوس باللذات قد بلغ مداه . .

***

لم يدم حبهما إلا بضعة أشهر . . ولكن متى كان للزمن فى الحب حساب ! ؟ متى كان الهناء يقيم ولا يرحل ويعد هناء ؟ أليست حكمة الهناء تقضى بأن نبادر إلى التزود منه، غير ناظرين إلى الشقاء الذى يتربص بنا ليجرى فى أعقابنا ؟ ! أولم يصدق « هوراس » فى نصحه إيانا أن نقطف اليوم الذى يأتى دون أن نشغل بالنا بالغد الدانى القطوف ؟ !

لقد كان حباً عنيفاً ثائراً . كأنه انتقام من الدهر . . بل كأنه انتقام لمئات الألوف من القلوب الكسيرة والنفوس المحترقة

المنبثة فى أنحاء الأرض . . كأنه استهتار بالقدر نفسه وسطوته ، بل كأنه . . . كأنه الانتحار ، والركض فى وادى المنون ! .

بيد أن الغانية لا تعيش على ضياعها الواسعة أو ثروتها الطائلة . . والاشتراك فى عشرة امرأة كهذه له تكاليفه . . فحبيب القلب كان يدخل من باب الخدم ، فى الوقت الذى يدخل فيه الكونت حبيب الجيب من باب السادة . . ولم يكن دوماس الصغير يستقبل لديها إلا بعد منتصف الليل ، على أن يغادر الدار فى الفجر . . وذلك مراعاة للذوق الشيخ الهرم الذى لا ينكر كرمه ، وللكونت المتيم الثقيل الذى لا ينكر بذخه .

ولقد عرف دوماس الاعتذارات التى كانت تسرف فيها مارى خلال وجوده عندها . . فجاءته يوماً منها هذه الكلمة :

« يا بنى الحبيب . . انى أشكو قليلا ، وقد أمرنى الطبيب بالراحة ، سأنام هذا المساء مبكرة فلا أراك . ولكننى أعوض عليك ، فأنتظرك غداً ظهراً . . انى أحبك » « مارى »

فكان أول ما خطر له : « إنها تخدعنى » . وراح إلى الشانزليزيه ، وظل صابراً على نار أربع ساعات متواصلة . فلم يظهر لها أثر . ولم يدع فى ذاك المساء مسرحاً أو مرقصاً تعودت التردد عليه دون أن يلجه . . ولكن بغير طائل . وفى الساعة

الحادية عشرة مساء قصد بيتها ، ومعه مفتاحه الخلفى الذى كانت أعطته له برهانا على حبها . . فاعترضه البواب قائلا : « إن السيدة لم تعد بعد » .

فخرج دوماس غضبان أسفا، وظل يتمشى على الرصيف المقابل روحة وجيئة والضجر يقتله. حتى إذا انتصف الليل أقبلت مركبة مقفلة ، ووقفت ، فنزلت منها مارى وأحد أصحابها ، فدفع للحوذى أجره ، ودخلا ، ودوماس على الرصيف ، حتى الساعة الرابعة صباحا . فعاد يائسا باكيا إلى بيته . وعند الظهر كان أمام مارى يناقشها الحساب . ففسرت له ما استطاعت من ظروف الحال . .

وكان قد ضعف لمجرد مرآها شائقة مؤاتية ، وتلاشى غضبه ، وتقبل سلفا الأكاذيب على أنها حقائق . . وها هى ذى قد ابتدرته بعهد جديد للعطف والحنان ، فقبلت الخروج معه للعشاء ، وارتضت الظهور معه فى مقصورتها بالمسرح . . فى اليوم التالى .

وعند خروجهما بعد السهرة ذهبا لتناول السحور . . ولم ينصرف من لدنها إلا عند الظهر ، بعد ليلة غراميات جنونية ، سكرا فيها سكر هوى قاتل .

وكانت تلك ذروة عاطفتهما وأقصى ما بلغه حبهما . ولم يفترقا من بعد ، بل ظلا يراكمان الحماقات ، ولا يكترثان بالظروف ، ويستهتران بالذين كانوا يدفعون ثمن ذلك الترف كله ولا ينالهم من الحب قطرة .

وكانت مارى ، إذا طاب الجو ، وحان الأصيل ، تلتف فى كشميرها الجميل ، وتنزل مستندة إلى ذراع حبيبها المفتون ، يتمشيان فى ملتويات الشانزليزيه التى تظللها الأشجار الحنون ، فتجعل منها خمائل للبث والنجوى .

وكان الناس يرونهما معا فى كل مكان ، حتى أصبحا حديث باريس ، وكانا ، حين يراهما الناس ، يفرج كلاهما عن صاحبه ، ويرحمه من ذلك البحران الشهوانى ، الكفيل ، فى وقت قصير ، بأن يدع الجسم كالجثة الهامدة ، والقلب كورقة الخريف الذابلة . .

وكان يستحيل على تلك الفتاة المصدورة ، الرقيقة ، النحيلة ، أن تتحمل كل هذا الحب العنيف ، الذى كان يفنيها ويقتلها فى اليوم مرات .

* * *

وألح عليها المرض ، وألح عليها الدائنون ، وظلت صاحبتها

كليمانس تغريها.. وتقول لها، إنها تضيع على دوماس مستقبله.. وفى القصة نجد الأب يتوسل إليها أن تتخلى عن ولده، حتى تستطيع أخته أن تتزوج.. ولكن فى الحقيقة أن الأب دوماس الكبير كان جد فخور بهذا الغرام.

ولم يكن دوماس الصغير ينفق عليها من حُرّ ماله إلا القليل، لأنه لم يكن غنياً. ولم تكن هى تطلب منه كثيراً ولا قليلاً.. ولكن لما كانت النساء اللواتى لا يقبلن مالاً هن عادةً أغلى النساء، فقد كان فتانا يزداد كل يوم تورطاً. وهو الآن مدين بخمسين ألف فرنك، أى بنحو الألفى جنيه. بل لقد اضطر أحياناً إلى أن يلجأ إلى القمار ليربح نفقات خروجهما، أو ثمن عشائهما.. ولو أنه كان بليد الإحساس أو بغير ضمير، لما اكترث، كما يفعل كثيرون، ممن يتركون عشيقاتهم ينفقن عليهم..

وأدرك أن صاحبته تضحى من أجله بمستقبلها، وأنه من الجانب الآخر لا يستطيع أن يكفله لها. وهذا هو السر فى خطاب القطيعة الذى أرسله إليها فى منتصف ليل ٣٠ أغسطس سنة ١٨٤٥:

« عزيزتى مارى

« لست من وفرة الغنى بحيث أحبك على ما أشتهى، ولست من

شدة الفقر بحيث أرضى بحب على مشتهاك .. فلنتناسى ازدة جميعاً .. تناسى اسماً كانه لاسمك قليل الأثر عندك .. ولأتناسى هناء حرم على .

« عبثاً أقول لك كم أنا حزين صادمت تعلمين مبلغ حبي .. وداعاً ازدة ! . . . انه لك قلباً أكبر من ألا يغفر لي سبب خطابي ، وانه لك عقلاً أكبر من ألا يغفر لي . .

« ألوف الذكريات . . » « ا . د »

* * *

وكان داء الصدر فى تلك الأثناء يدب فى جسمها دبيبا خفيا تارة ، وجليا تارة أخرى . . وكأنى بغادة الكاميليا تعاند الموت ، ولكنها تشعر بأن سهمه قد أصابها فى الصميم . . وكان كل من يلمحها يحكم بذلك .

رآها بول دى سان فيكتور ذات مساء فى حفلة راقصة ، وانزعج أشد الانزعاج ، فكتب :

« إن بشرتها الناصعة المُثلى قد ذابت ، كما يذوب الثلج ، بنار الحمى . . . وكان اللهب الخابى يلعب بألسنته الأخيرة على وَجنتيها الذابلتين . . . ولقد خبت عيناها النجلاوان وزادتا عمقاً ، وجعلتا ، شيئاً فشيئاً ، تحت جفنيها ، تنطفئان . . . »

وبدأ الدائنون يقلقون وينذرون ويقتحمون دارها بلا استئذان . . وكانت مدينة لكل إنسان ، حتى بواب بيتها « بريفيه » كان يدينها بـ ٢٣٥ فرنكا ! . . . ويصبر عليها خادماها بأجرتهما . ورهنت كل ما كان عندها . وأخذت نقوداً بالنسيئة بأرباح أضعافها . ولم تكن قادرة على النزول عن مستوى معيشتها الفاخرة ، لأن ذلك الترف كان مصدر رزقها .

« لم تعد امرأة ، بل ظِل امرأة . . شيء أبيض شفاف ، عظم وثوب . »

لقد أفل نجمها وباريس فى إبان أعيادها . فقد كانت أعياد الكرنفال تملأ الطرقات بالفرح والمرح والضجيج ، بينا غانية باريس « غادة الكاميليا » تقضى نحبها ، وليس إلى جانبها من كل المحبين إنسان يسندها فى احتضارها ، إلا خادمتها المخلصة الأمينة . .

وفى ٣ فبراير ، يوم أربعاء ، صعدت روحها إلى بارئها ، فكتب يؤبّنها « توفيل جوتيه » الروائى النابه فى جريدة « لابريس » :

« لقد ظلت ثلاثة أيام سويا واقفة ، وهى شاعرة بوقوفها ، على شفا ذلك الجرف الهارى ، الذى سوف تتردى فيه جميعاً . .

وظلت ممسكة بيـــد ممرضتها لا تتركها طرفة عين . .

« ولكنها تركتها عندما أقبل ملَك الموت يلح عليها ويتعجلها الرحيل ، ويحملها على رغمها . . وفى آخر مجهود لشبابها إزاء فنائها انتصبت بقوة فى فراشها ، طلباً للغوث . . ثم صرخت ثلاث صرخات ، وسقطت إلى الأبد . . فى أكفانها . . . »

وكان لها من العمر ثلاثة وعشرون ربيعاً .

١٩٤٢/١١/٢/٩٠١

DATE DUE

843.08:M95gA:c.1
محمد ،احمد الصاوى
غانيات
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032180